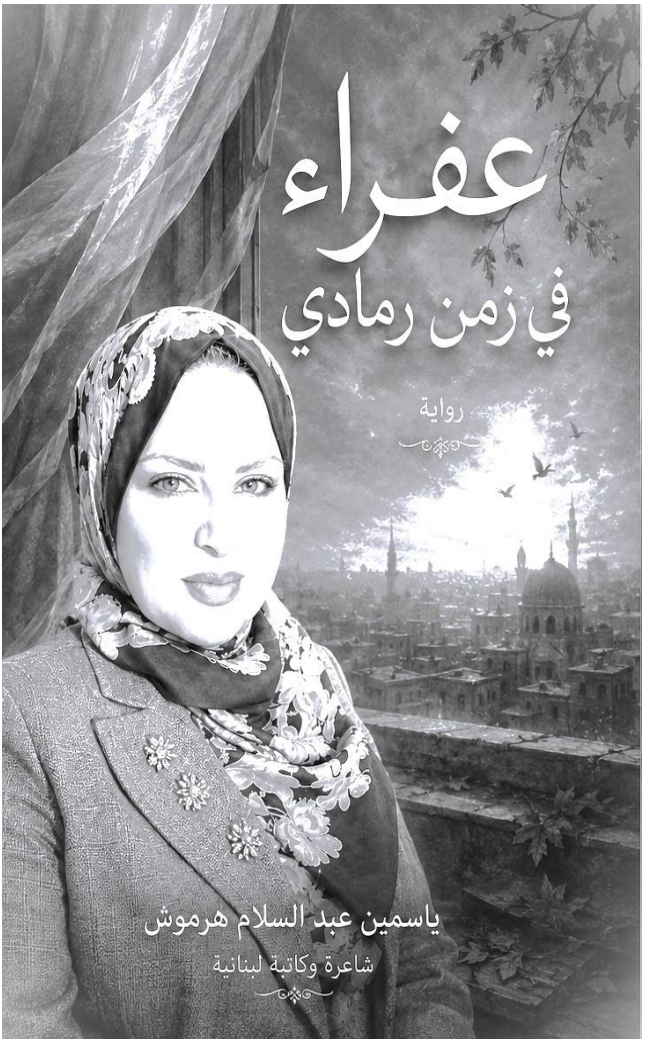
عفراء
في زمن رمادي
رواية
ياسمين عبد السلام هرموش
شاعرة وكاتبة لبنانية

بسم الله الرحمان الرحيم

- **العنوان**: عفراء في زمنٍ رمادي
- **الكاتبة :** ياسمين عبد السلام هرموش
- **تاريخ النشر**: اوت / 2026
- **مقاس الكتاب**: 14*21
- **نوع الكتاب**: رواية اجتماعية
- **دار النشر**: دار القيصر للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

الناشر: دار القيصر للنشر والتوزيع

مدير الدار: زهير قميش

رقم الهاتف: 05.59.64.47.37

رقم الإيداع القانوني / :

978-9969-542-45-5

الإيميل: daralkaicer@gmail.com

العنوان: 03 شارع صيود عاشور/ مشتلة المؤسسات

السجل التجاري : 23/00-1874844أ 20

رقم التعريف الجبائي : 178230102051146

IBAN DZ58 0002 1003 0111 3005 4262 03

الفهرس

ملخص راوية عفراء في زمن الرمادي 1

الفصل الأول: جدران تتذكر 6

الفصل الثاني: المسافة بيني وبينهم 12

الفصل الثالث: الاسم الذي ورثته 23

الفصل الرابع: ما تركه الصمت 31

الفصل الخامس: حين يبدأ الاسم بالثقل 36

الفصل السادس: الوطن حين يتكلم من الداخل 44

الفصل السابع: حين يصبح السؤال طريقا 50

الفصل الثامن: حين يطلب الطريق شاهدا 54

الفصل التاسع: حين تخرج الأسئلة إلى العلن 60

الفصل العاشر: حين يتكشف الوطن في المرآة 69

الفصل الحادي عشر: ما يبقى بعد أن يهدأ الصوت 78

الفصل الثاني عشر: ما لا يعود إلى الظل 84

الفصل الثالث عشر: ثمن الوضوح 88

الفصل الرابع عشر: ما لا يقال علنا 93

الفصل الخامس عشر: لحظة الانكشاف 97

الفصل السادس عشر: حين تقترب الحقيقة من اسمها 101

الفصل السابع عشر: ما لا يقال حين يقال كل شيء 104

الفصل الثامن عشر: حين يصبح الصمت فعلا 108

الفصل التاسع عشر: حين يقترب الخارج 112

الفصل العشرون: حين يطلب الاسم كاملا 116

الفصل الحادي وعشرون: ما لا يقال بعد الموقف 120

الفصل الثاني والعشرون: إعادة ترتيب الذات 124

الفصل الثالث والعشرون: الاسم الذي اخترته 128

الفصل الرابع والعشرون: حين لا يعود الصمت خيارا 133

ملخص راوية عفراء في زمن الرمادي*

ليس الصمت دائمًا علامة على الحكمة، وأحيانًا لا يكون سوى شكل مهذّب من أشكال الخوف.

في مدينة تعرف كيف تُخفي ارتباكها خلف الهدوء، تعيش عفراء حياتها كما لو كانت تسير فوق طبقة رقيقة من الجليد؛ ثابتة في ظاهرها، متماسكة في حضورها، لكنها تعرف في داخلها أن أي خطوة زائدة قد تُحدث شرخًا لا يمكن إصلاحه. لم تكن تبحث عن بطولة، ولا عن مواجهة كبرى، كانت تريد فقط أن تعيش دون أن تُضطر إلى تقسيم نفسها نصفين: نصف يرى الحقيقة، ونصف يتظاهر بعدم رؤيتها.

تنتمي عفراء إلى جيل تربّى على الحذر، على اختيار الكلمات بعناية، وعلى الإيمان بأن النجاة تكمن في عدم لفت الانتباه. نشأت في بيتٍ يحترم الصمت أكثر مما يحتفي بالكلام، وكان والدها مثالًا حيًا لذلك؛ رجل يعرف أكثر مما يقول، ويرى أكثر مما يسمح لنفسه بالاعتراف به. وحين ترحل السلطة الأبوية بصمتها الثقيل، تترك خلفها إرثًا غير مكتوب: كيف تعيش دون أن تصطدم؟ وكيف تحمي نفسك دون أن تفقد ذاتك؟

تبدأ الرواية من مساحة داخلية مضطربة، حيث تشعر عفراء بأن حياتها تسير وفق إيقاع لا يشبهها تمامًا. تعمل في بيئة منظمة، مستقرة ظاهريًا، لكنها مشبعة بشبكات خفية من المصالح والخوف والتواطؤ الصامت. كل شيء يبدو طبيعيًا، لكن التفاصيل الصغيرة تكشف هشاشة النظام: قرار يُتخذ دون نقاش، اعتراض يُهمّش بلطف، سؤال يُقابل بابتسامة باردة. هناك دائمًا ما يُقال، وما لا يُقال، وما يُفهم دون تصريح.

مع تصاعد الأحداث، تجد عفراء نفسها أمام سلسلة من المواقف التي تختبر حدود صمتها. لا يتعلق الأمر بفضيحة كبرى أو حادث استثنائي، بل بتراكمات يومية، دقيقة، تُجبرها على مراجعة موقعها: هل تظل في المنطقة الآمنة؟ أم تخطو خطوة صغيرة نحو الوضوح، مهما كان ثمنها؟ تبدأ في ملاحظة التناقض بين ما تؤمن به وما تمارسه، بين صورتها أمام الآخرين وصورتها في مرآتها الخاصة.

محور الرواية ليس حدثًا واحدًا، بل رحلة داخلية طويلة نحو الانساق. تكتشف عفراء أن الصمت الذي ظنّته حماية يتحول تدريجيًا إلى شكل من أشكال التواطؤ غير المقصود، وأن الحياد في بعض اللحظات ليس موقفًا بريئًا، بل اختيارًا له أثره. لكنها في الوقت ذاته لا تريد أن تتحول إلى شخصية صاخبة أو راديكالية،

فهي تدرك أن الواقع أعقد من الشعارات، وأن البطولة الخالصة غالبًا ما تكون وهمًا أدبيًا أكثر منها خيارًا عمليًا.

يلعب الماضي دورًا مركزيًا في تشكيل حاضرها، خصوصًا علاقتها بوالدها، الذي يظل حاضرًا كصوت داخلي يذكّرها بأن لكل زمن حساباته. حين تعثر على ما تركه خلفه من أوراق ورسائل غير مكتملة، تبدأ بفهم طبقات أعمق من شخصيته، وتدرك أن صمته لم يكن دائمًا ضعفًا، بل أحيانًا استراتيجية نجاة في سياق لا يرحم. هذا الاكتشاف لا يبرّر كل شيء، لكنه يفتح أمامها بابًا للمصالحة، لا مع الماضي فحسب، بل مع فكرة الإرث نفسها: كيف نحمل ما سبقنا دون أن نكرّره كما هو؟

مع تطوّر الرواية، تتقلّص المسافة بين ما تفكّر فيه عفراء وما تفعله. تبدأ برفض التنازلات الصغيرة التي اعتادت عليها، وتعيد رسم حدودها في العمل والعلاقات. لا تتغيّر المدينة، ولا يتحوّل العالم فجأة، لكن شيئًا حاسمًا يحدث داخلها: تتوقف عن الانقسام. لم تعد مستعدة لأن تكون شخصين في جسد واحد، أحدهما واعٍ والآخر متكيّف على حساب وعيه.

الرواية لا تقدّم إجابات جاهزة، ولا تصوغ خطابًا مباشرًا عن الوطن أو الحرية، بل تشتغل على المسافة الدقيقة بين الفرد

والنظام، بين الانتماء والنقد، بين الخوف والمسؤولية. الوطن هنا ليس شعارًا، بل سياقًا يوميًا، شبكة معقدة من العلاقات والسلطات والذكريات. وعفراء لا ترفضه ولا تذوب فيه، بل تحاول أن تجد موقعها داخله دون أن تخون ذاتها.

في الفصول الأخيرة، تصل الرحلة إلى ذروتها النفسية، لا عبر حدث خارجي صادم، بل عبر لحظة إدراك عميق: أن الصمت لم يعد خيارًا افتراضيًا يمكن اللجوء إليه كلما تعقّدت الأمور. لا يعني ذلك أنها ستصرخ، أو تعلن التمرّد، بل يعني أنها ستختار بوعي متى تصمت ومتى تتكلم، وأنها لن تسمح للخوف بأن يحدّد موقعها بعد الآن.

الخاتمة تأتي هادئة، ناضجة، خالية من الانتصارات الصاخبة. عفراء لا "تنتصر" على أحد، لكنها تنجح في استعادة وحدتها الداخلية. تخرج إلى يوم عادي، في مدينة لم تتغيّر كثيرًا، لكنها لم تعد تمشي فيها بالطريقة نفسها. لم يعد سؤال "هل يستحق الأمر؟" يلاحقها، لأن معيارها تغيّر: لم تعد تقيس قراراتها بمدى سلامتها الخارجية، بل بمدى اتساقها الداخلي.

"عفراء حين لا يعود الصمت خيارًا" هي رواية عن التحولات البطيئة التي لا يراها أحد، عن الشجاعة غير المرئية، عن اللحظة

التي يكتشف فيها الإنسان أن الخوف لم يعد عذرًا كافيًا للانقسام. إنها حكاية امرأة لا تبحث عن الضوء، بل عن وضوح يمكن العيش داخله دون خيانة للنفس، وعن وطن يمكن الانتماء إليه دون فقدان القدرة على مساءلته.

في عالم يقدّس التكتيف، تختار عفراء أن تختبر معنى الصدق مع الذات، لا بوصفه شعارًا، بل بوصفه ممارسة يومية دقيقة. وحين لا يعود الصمت خيارًا، لا يبقى أمامها سوى أن تعيد تعريف وجودها، خطوة صغيرة، لكن حاسمة، نحو حياة أكثر اتساقًا، وأقل خوفًا، وأكثر إنسانية.

الفصل الأول : جدران تتذكر

عفراء

لم أكن أعرف متى بدأ الوطن يتراجع خطوة إلى الوراء،

ولا متى صرتُ أنا في الواجهة.

أحيانًا أظن أن التراجع لا يحدث دفعة واحدة، بل يشبه حركة المدّ حين ينسحب بهدوء، يترك الرمل مبللًا وباردًا، ويقنعك أن البحر ما زال قريبًا، بينما هو في الحقيقة يبتعد دون نية للعودة.

هكذا كان الوطن.

وهكذا كنتُ أنا، أقف حيث لم أطلب الوقوف، وأرى المشهد من زاوية لم أتهيأ لها.

كل ما أعرفه أنني استيقظتُ ذات صباح وأنا أشعر بأن شيئًا ما قد انكسر.

لم يكن كسرًا صاخبًا، لا ارتطام ولا شظايا.

كان أشبه بزجاج قرر أن يتفتت بصمت، احترامًا لثقل اللحظة، أو خوفًا من أن يوقظ الذاكرة.

ذلك الصباح لم يحمل علامة فارقة في شكله.

السماء رمادية على عادتها، والضوء خافت كأنه يعتذر عن الحضور.

لكن داخلي كان مختلفًا.

كنت أشعر بثقلٍ غير مرئي، كأن أحدهم وضع حجرًا صغيرًا في صدري وقال: احمليه... وستفهمين لاحقًا.

اسمي عفراء.

أنطقه أحيانًا ببطء، كأنني أختبر صلابته.

اسم خفيف في اللفظ، ثقيل في المعنى، يشبهني أكثر مما أحب الاعتراف.

قالت أمي يومًا، وهي تمشط شعري أمام المرآة القديمة في غرفة النوم، إن الأسماء لا تُختار عبثًا.

قالت إن الاسم قد يسبق صاحبه إلى مصيره بخطوة، وربما بخطوتين.

ضحكتُ يومها. كنت صغيرة، وكان الوطن يومها واسعًا بما يكفي كي لا نخاف من الكلمات، ولا من دلالاتها، ولا من الظلال التي تخلفها وراءها.

كبرتُ في مدينةٍ تشبه النساء الصابرات.

مدينة لا تشتكي، لكنها تتعب.

جميلة من بعيد، لأن البعد يمنح الأشياء فرصة للكذب، ومتعبة حين تقترب، لأن القرب لا يعرف المجاملة.

هنا، الشوارع تحفظ أسماءنا أكثر مما نحفظ أسماءها.

تنادينا حين ننسى أنفسنا، وتغضّ الطرف حين نخطئ، لكنها لا تنسى.

الجدران تتذكر ما ننساه عمدًا، تحفظ الهمسات، وتعيدها إلينا حين نعتقد أننا نجونا.

كنت أمشي كل صباح إلى عملي بالطريقة نفسها.

الخطوات ذاتها، الأرصفة ذاتها، البائع العجوز عند الزاوية، والمرأة التي تفتح نافذتها في التوقيت نفسه.

كنت أحيّي الوجوه ذاتها، وأقنع نفسي أن التكرار نوع من الطمأنينة، لا من الاستسلام.

أن الثبات، أحيانًا، شجاعة مقنّعة.

أعمل في أرشيفٍ قديم، مبنى حكومي فقد هيبته قبل أن يفقد طلاءه.

جدرانه سميكة كأنها خُلقت لتخزين الأسرار، ونوافذه عالية لا تطلّ على شيء مهم.

أوراق صفراء، ملفات مربوطة بخيوط بالية، وأسماء لأشخاص لم يعودوا هنا، أو عادوا بأسماء أخرى.

كنت أقول لنفسي إنني لا أعمل في الأرشيف، بل في الذاكرة.

والذاكرة، مثل الوطن، لا تحب من يعبث بها، لكنها تبتسم سرًا لمن يحاول فهمها.

في ذلك الصباح، لم يكن في الأمر ما يوحي بالخطر.

الخطر لا يعلن عن نفسه عادة.

يأتي متنكرًا في هيئة يوم عادي، قهوة دافئة، ومعطف رمادي.

الشمس خرجت بتردد، كأنها غير واثقة من حقها في الإضاءة.

الهواء كان باردًا على غير عادته، يحمل رائحة شتاء متأخر، أو نذيرًا لا اسم له.

أعددت قهوتي ببطء، كأنني أساوم الزمن على التمهّل.

ارتديت معطفي الرمادي، ونظرت في المرآة نظرة عابرة، لا لأتأكد من ملامحي، بل لأتأكد أنني ما زلت هنا، كاملة بما يكفي لمواجهة النهار.

حين خرجت، مررتُ بجانب البيت المهجور في آخر الحي.

ذلك البيت لا يفعل شيئًا سوى الوقوف.

ومع ذلك، يملك قدرة غريبة على إثقال الصدر.

سكنه أناس رحلوا فجأة، دون وداع، دون أثر.

قالوا إنهم سافروا.

وقال آخرون إنهم اختفوا.

وفي هذه البلاد، الفرق بين السفر والاختفاء لا يُقاس بالمسافة، بل بالنية.

وصلتُ إلى المبنى قبل الجميع.

أحب هذا الوقت، حين يكون المكان خاليًا إلا من الصمت.

الصمت هنا ليس فراغًا، بل امتلاء مؤجل، انتظار طويل لما سيقال ولن يُقال.

فتحت المكتب، جلست، وبدأت بترتيب الملفات التي لم يطلبها أحد منذ سنوات.

كنت أعرف أن العبث بالماضي خطر،

لكنني لم أكن أظن أن الماضي قد ينهض فجأة،

ويطالب بحصته من الحاضر.

الفصل الثاني: المسافة بيني وبينهم

عفراء

لم أنم تلك الليلة.

لا لأن الأفكار كانت صاخبة، بل لأنها كانت هادئة أكثر مما ينبغي.

الهدوء حين يأتي في غير أوانه يتحول إلى استفزاز خفي، يشبه نظرة طويلة لا تعرف إن كانت شفقة أم اتهامًا.

كنت أستلقي على ظهري، أراقب السقف، وأشعر أن الوقت لا يتحرك، بل يراقبني بدوره.

كلما أغمضت عينيّ، لم أكن أرى صورًا واضحة.

لم يكن هناك مشهد كامل، ولا ذكرى مكتملة، بل شذرات:

رفوف عالية، غبار يتطاير ببطء، رقم أزرق باهت، وخط أبي.

الخط وحده كان واضحًا، حادًا، كأنه كُتب بالأمس، لا قبل سنوات.

الغريب أنني لم أبكِ.

كنت أتوقع دموعًا، انهيارًا، أي رد فعل تقليدي يريحني من عبء التفكير.

لكن ما حدث كان أثقل:

إحساس بوعيٍ مفاجئ، كأن قطعة ناقصة من حياتي استقرت أخيرًا في مكانها، حتى لو كان مكانًا مؤلمًا.

تقلبت كثيرًا.

حاولت أن أقنع نفسي أن الملف مجرد صدفة، أن خط أبي قد يكون شبيهًا بخط آخرين، أن ذاكرتي تخونني.

لكن الجسد لا يصدق الأكاذيب التي ينسجها العقل بحرفية.

جسدي كان متيقنًا.

كان يعرف.

قمت من السرير قبل الفجر بقليل.

ليس لأنني عزمت على شيء، بل لأن البقاء مستلقية صار احتمالًا لا يُحتمل.

البيت كان ساكنًا إلى درجة شعرت معها أنني الدخيلة عليه، لا العكس.

كل شيء في مكانه: الكراسي، الصور، الساعة القديمة على الجدار.

ومع ذلك، بدا لي أن البيت نفسه لا يعرفني هذه الليلة.

مشيت بحذر، كأن الأرض قد تفضحني إن سمعتني.

أعددت قهوة ثانية، رغم أن الأولى لم تبارح جسدي بعد.

لم أفكر في الطعم، ولا في الرائحة، فقط في فعل التحضير نفسه، كأنه طقس يمنحني وهم السيطرة.

جلست قرب النافذة.

المدينة في هذا التوقيت تشبه اعترافًا غير مكتمل.

أضواء قليلة متناثرة، نوافذ ساهرة بلا سبب واضح، وصمت لا يشي بالنوم بل بالتربص.

تساءلت فجأة إن كان أبي يحب هذا الوقت.

إن كان اختار الصمت لأنه يشبه الفجر:

لا أحد يطالبه بالشرح، ولا أحد ينتظر منه قرارًا.

حين بدأت الشمس تتسلل بخجل، لم أشعر بالراحة التي يعدوننا بها دائمًا مع الصباح.

شعرت بثقل جديد، أكثر تحديدًا هذه المرة.

لم يكن حزنًا خالصًا، ولا خوفًا واضح المعالم.

كان شيئًا أقرب إلى المسؤولية.

ذلك النوع من المسؤولية التي لا تُفرض عليك فجأة،

بل تكتشف أنها كانت موضوعة على كتفيك منذ زمن،

وأنت فقط لم تنتبهي.

في الطريق إلى العمل، بدت المدينة مألوفة على نحو مؤلم.

الأصوات نفسها، الروائح نفسها، الإعلانات نفسها المعلقة على الجدران منذ سنوات.

كل شيء في مكانه، إلا أنا.

كنت أشعر أنني أمشي بنصف خطوة خارج الإيقاع العام، كأنني أعرف سرًا لا يحق لي معرفته.

المبنى بدا أقل ترحيبًا من المعتاد.

ليس لأنه تغيّر، بل لأنني أنا التي تغيّرت.

الجدران نفسها التي كنت أراها محايدة صارت فجأة مراقِبة.

الوجوه مألوفة، لكن المسافات بينها اتسعت، كأن كل شخص صار جزيرة صغيرة.

زملائي يتحدثون عن أشياء صغيرة، تافهة تقريبًا:

تأخير الرواتب، عطب المصعد، خبر عابر في الإذاعة.

كنت أسمعهم، أومئ، أبتسم حين يلزم، لكنني كنت في مكان آخر تمامًا.

جزء مني ما زال بين الرفوف، عند الملف الذي لم أعد متأكدة أنه ينتظرني.

حين وصلت إلى مكتبي، عرفت قبل أن أراه.

الفراغ له لغة.

الملف لم يكن في مكانه.

تجمدت للحظة.

لم أتحرك فورًا، كأن الحركة قد تثبت الخسارة.

نظرت حولي، حاولت أن أبدو طبيعية، كأن فقدان ملف بلا عنوان أمر لا يستحق التوقف.

لكن قلبي كان أسرع من تمثيلي، وأدقّ.

فتحت الأدراج واحدًا تلو الآخر، بلا أمل حقيقي.

لم يكن هناك.

الفراغ صار أثقل من أي ورق.

سألت الحارس بهدوء مصطنع إن كان أحد قد دخل المكتب قبلي.

هز رأسه نافيًا، ثم أضاف، كمن يتذكر أمرًا ثانويًا:

«بس المدير وصل بكير اليوم».

تلك الجملة البسيطة حملت وزنًا غير متوقع.

المدير.

رجل لا يُرى كثيرًا، لكنه حاضر في كل شيء.

يشبه الدولة حين لا تظهر، لكنها تُشعرك بوجودها في كل تفصيل صغير، في كل تأخير غير مبرر، في كل صمت طويل.

جلست إلى مكتبي، فتحت درجًا فارغًا فقط لأكسب وقتًا.

لم أكن أعرف ماذا أفعل إن واجهني.

هل أسأل؟

هل أُنكر؟

هل ألتزم الصمت وأدع الأمور تمرّ كما مرت أشياء كثيرة من قبل؟

تذكرت أبي فجأة، بوضوح مؤلم.

كنت في الخامسة عشرة حين قال لي، ونحن نسير قرب البحر:

«السكوت مش دايمًا ضعف، بس الكلام مش دايمًا شجاعة».

كرهت الجملة يومها.

بدت لي حكمة باردة، تصلح للكبار فقط.

اليوم، فهمت أنها لم تكن نصيحة، بل تحذيرًا.

قرب الظهيرة، استدعاني المدير.

مكتبه واسع أكثر من اللازم،

كأنه مصمم ليُشعرك بأنك أصغر من أسئلتك، وأضعف من شكوكك.

الجدران ملساء، خالية من أي أثر شخصي، كأن الرجل تعمّد ألا يترك خلفه شيئًا يُمسك عليه.

أشار لي بالجلوس دون ابتسامة.

تحدث طويلًا عن الأرشيف، عن إعادة تنظيم، عن ملفات قديمة تحتاج مراجعة.

كان صوته متزنًا، لا يحمل نبرة اتهام ولا ودّ.

ثم توقف فجأة، نظر إليّ نظرة محسوبة، وقال:

«اسم والدك ورد في أحد الملفات».

لم أنكر.

لم أؤكد.

كنت أراقب نبرة صوته أكثر من كلماته،

أبحث عن شقّ صغير يتسرّب منه المعنى الحقيقي.

«بعض الأمور... من الأفضل أن تبقى كما هي»، أضاف.

قالها بهدوء، كمن يقدم نصيحة مخلصة.

لكنني فهمت.

الجملة كانت مهذبة، نعم، لكنها محمّلة بما يكفي من التهديد غير المعلن.

خرجت من المكتب وأنا أعرف، بيقين لا يقبل التفاوض،

أن العودة إلى ما كنت عليه لم تعد ممكنة.

ليس لأنهم منعوني،

بل لأنهم لاحظوني.

وفي هذه البلاد،

أن تُلاحظ

يعني أن تُحسب،

وأن تُحسب

يعني أن تُراقب،

وأن تُراقب

يعني أن تُختبر.

في المساء، عدت إلى البيت متعبة، لكنني لم أشعر بالانكسار.

شعرت بشيء أقرب إلى الوضوح القاسي.

كأن الضباب انقشع، لا ليكشف طريقًا، بل ليكشف الهاوية.

جلست إلى الطاولة، أخرجت دفترًا قديمًا كنت أكتب فيه حين أريد أن أفهم نفسي.

لم أكتب كثيرًا.

كتبت سطرًا واحدًا فقط، بيد ثابتة على غير العادة:

«إن كان الصمت اختيارًا،

فالكلام الآن مسؤوليتي».

أغلقت الدفتر ببطء.

وفي تلك اللحظة، عرفت أن أبي لم يختفِ لأنه تعب،

بل لأنه رأى ما لم أره بعد.

وعرفت أيضًا

أن الفصول القادمة

لن تكون عن الماضي فقط،

بل عن الثمن.

الفصل الثالث: الاسم الذي ورثته

عفراء

لم يكن أبي يحب الوداع.

لم يقل ذلك صراحة، ولم يشر إليه يومًا، لكن الغياب علّمني ما لم تعلّمني إياه السنوات التي قضاها حاضرًا.

الوداع، بالنسبة له، كان فعلًا نهائيًا أكثر مما يحتمل.

كان يعرف، على ما يبدو، أن بعض الجمل حين تُقال تُغلق أبوابًا لا تُفتح بعدها، وأن بعض الالتفاتات قد تتحول إلى قيود.

حين أستعيد طفولتي الآن، لا أبحث عن الذكريات الكبيرة، بل عن التفاصيل الصغيرة التي كنت أظنها عابرة.

كيف كان يؤجل الحديث الأخير،

كيف يغيّر الموضوع حين يقترب الكلام من الحافة،

وكيف كان يترك الجملة ناقصة، كأن اللغة نفسها خانته في اللحظة الأخيرة.

كان يغادر الغرفة دون أن يلتفت.

لا بعجلة، ولا بتجاهل، بل بخطوة محسوبة، كأن الالتفات سيجعله يبقى، والبقاء لم يكن ممكنًا دائمًا.

لم أفهم هذا السلوك يومها.

كنت أراه برودًا، وربما قسوة خفيفة.

اليوم فقط أدرك أن بعض الناس لا يلتفتون لأنهم يعرفون أن الالتفات سيكلفهم أكثر مما يستطيعون دفعه.

في طفولتي، كنت أظن أن الوداع ضعف.

أن من يلوّح بيده إنما يعترف بالحاجة.

الكبار، في مخيلتي الصغيرة، لا يحتاجون إلى كلمات أخيرة، ولا إلى نظرات طويلة.

كنت أعتقد أن الثبات هو أن تمشي دون أن تنظر خلفك.

اليوم أعرف أن الوداع شجاعة مؤجلة،

وأن أبي لم يكن جبانًا،

بل كان يعرف أكثر مما يحتمل.

بعد يوم المكتب، لم أعد مباشرة إلى البيت.

لم أشعر أن الجدران ستحتملني، ولا أنني سأحتمل صمتها الثقيل.

خرجت إلى الشارع بلا خطة، بلا نية واضحة، أترك للمدينة حرية قيادتي، كما لو كنت أضع نفسي بين يديها للمرة الأولى.

المدينة لا تتغير حين تتغير نظرتك إليها.

تبقى الشوارع في أماكنها، والمباني على حالها، والضجيج كما هو.

لكنها تكشف لك ما كانت تخفيه، لا لأنها خبّأته، بل لأنك لم تكوني جاهزة لرؤيته.

بدت المباني أقرب مما أذكر،

كأنها تقترب منك حين تبدأ بالفهم.

الشرفات كانت أكثر امتلاءً بالعيون،

والطرقات أضيق،

كأن المدينة تضيق بك كلما اتسعت رؤيتك.

كنت أمشي وأفكر في عدد المرات التي عبرت فيها هذه الشوارع دون أن أنتبه.

كم من الأسرار مرّت بجانبي وأنا منشغلة بسلامي الصغير.

كم من الصمت كان يُمارَس أمامي وأنا أفسّره حيادًا.

شعرت فجأة أن المدينة تعرفني.

تعرف أبي.

تعرف قصتنا أكثر مما نعرفها نحن.

وكأنها كانت تنتظر اللحظة التي أبدأ فيها بالسؤال.

توقفت أمام المقهى القديم الذي كان أبي يجلس فيه كل خميس.

لم أدخله منذ سنوات.

ليس لأنني قررت ذلك، بل لأن شيئًا في داخلي كان يخشى الفراغ.

كنت أخاف أن أجد مكانه فارغًا،

وأن يكون الفراغ أكثر إقناعًا من أي ذكرى.

المقهى لم يتغير كثيرًا.

الطاولات الخشبية ذاتها،

الكراسي التي تصدر صوتًا خفيفًا حين تُسحب،

ورائحة القهوة الثقيلة المختلطة بدخان قديم لا يغادر المكان.

جلست في الزاوية نفسها التي كان يختارها دائمًا.

لم أفعل ذلك بدافع الحنين فقط،

بل بدافع الاختبار.

أردت أن أعرف: هل ما زال المكان يحتفظ بشيء منه، أم أنني وحدي من تفعل؟

طلبت القهوة نفسها التي كان يشربها.

لم أكن أحبها يومًا،

لكنني أردت أن أجرّب العالم من زاويته، ولو للحظة.

انتظرت.

لم أنتظر شخصًا بعينه.

لم أكن ساذجة إلى هذا الحد.

كنت أنتظر الشعور.

ذلك الإحساس الغامض بالأمان الذي كان يرافق وجوده، حتى وهو صامت،

حتى وهو ينظر إلى الشارع أكثر مما ينظر إليّ.

تذكرت يديه.

كانتا هادئتين، دقيقتين في الحركة،

كأنهما تخشيان أن تؤذيا العالم إن أسرفتا في اللمس.

لم يكن يكثر من الإيماءات،

ولا من اللمسات العابرة،

لكن حين يضع يده على كتفي، كنت أعرف أنني في مأمن، حتى لو لم أفهم من ماذا.

تذكرت صوته.

ليس حين يتكلم،

بل حين يصمت.

ذلك الصمت الذي لا يحرجك، ولا يضغط عليك،

بل يمنحك مساحة كي تكون كما أنت، بلا حاجة للتبرير.

حين دفعت الحساب وغادرت، أدركت شيئًا مؤلمًا:

أنني لا أبحث عنه في الأمكنة.

الأمكنة خذلتني.

أنا أبحث عنه في القرارات التي اتخذها ولم يخبرني عنها،

في الطرق التي اختار ألا يسلكها علنًا،

وفي الصمت الذي أورثني إياه دون وصية.

في المساء، عدت إلى البيت.

لم أشعل الضوء فورًا.

جلست قليلًا في العتمة،

أستعيد وقع الخطوات في السلم،

ورائحة البيت حين يُفتح بعد غياب.

ثم صعدت على الكرسي،

وأخرجت صندوقًا قديمًا من أعلى الخزانة.

لم أفتحه منذ رحيله.

ليس لأنني نسيت وجوده،

بل لأن بعض الأشياء لا تُفتح إلا حين تصبح قادرًا على تحمّل ما سيخرج منها.

الصندوق، في حد ذاته، كان اختبارًا.

فتحت الغطاء ببطء.

كأنني أخشى أن يصدر صوتًا عاليًا،

أو أن ينهار شيء ما في داخلي إن استعجلت.

في الداخل، وجدت دفاتر،

رسائل غير مرسلة،

قصاصات ورق،

وصورة قديمة لنا أمام البحر...

الفصل الرابع: ما تركه الصمت

لم تكن الصورة في أعلى الصندوق، وكأن أبي تعمّد أن يجعلني أبحث عنها ببطء، أن أضطر إلى المرور على كل ما خبأه قبلاً، أن ألمس أثره في الأشياء قبل أن أواجه أثره في نفسي، فالصناديق لا تُرتّب عبثًا، والآباء الذين يرحلون بصمت يتركون وراءهم فوضى محسوبة، فوضى تشبههم أكثر مما نعترف.

تجاوزت الدفاتر دون أن أفتحها، ليس لأنني لا أريد أن أعرف، بل لأنني كنت أعرف أن الدفاتر لا تُقرأ واقفة، وأن الاعترافات لا تُستقبل على عجل، وأن ما كُتب هناك كُتب في لحظات ضعف أو شجاعة لا أعرف أيهما كان الغالب، وأنا لم أكن مستعدة بعد لأن أضع نفسي في موضع القارئة التي تحاكم، أو الابنة التي تسامح قبل أن تفهم.

الرسائل غير المرسلة كانت مرتبة بعناية غريبة، أظرفتها بيضاء بلا عناوين ولا طوابع، كأنها لم تُخلق لتغادر هذا البيت أبدًا، كأن أبي كتبها ليخفّف عنه ثقل الكلمات لا ليحمّلها لأحد آخر، فبعض الرسائل تُكتب فقط كي لا تختنق في الصدر، لا كي تصل.

في قاع الصندوق، حيث تُخفى الأشياء التي نعتقد أنها لن تُرى، كانت الصورة.

أبي يقف إلى جانبي، البحر خلفنا يمتد بلا نهاية، وأنا أنظر مباشرة إلى العدسة بثقة طفلة لا تعرف بعد أن العالم لا يردّ النظرات ببراءة، بينما كان هو ينظر إلى شيء آخر، إلى نقطة خارج الإطار، كأنه كان يرى ما لا أراه، أو كأنه كان يودّع شيئًا لم أكن أعلم أنه على وشك الرحيل.

كنت صغيرة في تلك الصورة، لكن الذاكرة لا تحتاج إلى حجم كي تكون واضحة، أذكر الريح التي كانت تعبث بشعري، وأذكر كيف وضع يده على كتفي عندما اقتربت الموجة أكثر مما ينبغي، تلك الحركة البسيطة التي فهمتها لاحقًا، لم تكن حماية من الماء، بل وعدًا غير معلن بأن هناك دائمًا من يقف بينك وبين الغرق، حتى لو لم يبقَ طويلًا.

سألت نفسي، وأنا أحدّق في ملامحه المتماسكة على الورق الباهت، إن كان يعرف في تلك اللحظة أنه سيغيب، إن كان ذلك الهدوء الذي يلفّه هدوءَ من أنهى حساباته مع العالم، أم هدوءَ من يؤجّل المواجهة إلى وقت لا يملك الشجاعة ليحدده،

فالهدوء ليس دائمًا علامة سلام، أحيانًا يكون علامة استسلام مؤجل.

قلّبت الصورة ببطء، وكأنني أتهيأ لخبر سيئ، فالظهر لم يكن فارغًا، وخطّه كان هناك، واضحًا بما يكفي ليخترق السنوات، أعرفه كما يُعرف صوت شخص عزيز في الظلام، لا يحتاج إلى تعريف.

«عفراء... إذا وصلتِ إلى هنا، فهذا يعني أنني لم أكن شجاعًا بما يكفي لأقول كل شيء.»

توقفت عند الجملة، لا لأن الكلمات كانت صعبة، بل لأنها كانت صادقة أكثر مما أحتمل، فالشجاعة حين تُذكر من فم الآباء لا تكون فضيلة عامة، بل اعترافًا شخصيًا بالفشل، والفشل حين يأتي متأخرًا يكون أثقل من الخطأ.

جلست على الأرض دون أن أشعر، الصندوق ما زال مفتوحًا أمامي، والبيت من حولي صامت بطريقة غير مألوفة، كأن الجدران نفسها تعرف أن ما يُقرأ الآن لا يُقال بصوت عالٍ، وأن بعض الحقائق تحتاج إلى مساحة صمت كي تُفهم.

تابعت القراءة، ببطء يشبه المشي في أرض غير مأمونة، حيث كل كلمة قد تنفجر بمعنى لم أستعد له بعد.

«لم أختر الصمت لأنني لا أملك الحقيقة، بل لأن الحقيقة في هذا البلد تُكلّف أكثر مما يستطيع الإنسان العادي أن يدفعه دون أن يُكسر.»

شعرت بغضب بارد يتسلل إلى صدري، ليس غضب الابنة التي تشعر بأنها تُركت وحدها، بل غضب امرأة فهمت متأخرة أن الصمت ليس حيادًا، وأن الخوف ليس ضعفًا فرديًا فقط، بل نظامًا كاملًا يُدار بذكاء، وأن الحب أحيانًا يتخفّى في هيئة انسحاب.

كانت الرسالة طويلة، لكنها لم تكن اعتذارًا، ولم تكن وصية، كانت محاولة يائسة لترتيب الفوضى التي خلّفها غيابه، كتب عن العمل دون أن يسمّيه، عن ملفات لم يكن يجب أن تُفتح، عن أسماء لا تُقال إلا همسًا، وعن لحظة واحدة فقط، لحظة قال فيها «لا» عندما كان الجميع يقولون «نعم»، تلك اللحظة الصغيرة التي تغيّر حياة كاملة دون أن يلاحظها أحد.

عند تلك النقطة، لم أعد أقرأ بصفتي ابنة، بل بصفتي شخصًا وُضع فجأة أمام سؤال أكبر منه، سؤال عن الثمن، عن الجدوى، عن معنى أن تكون نظيف اليدين في عالم لا يكافئ إلا من يوسّخها بذكاء.

أغلقت الرسالة قبل أن أصل إلى نهايتها، ليس لأنني اكتفيت، بل لأنني شعرت أن الليل لا يتسع لكل هذا الثقل، وأن بعض الحقائق تحتاج إلى زمن أطول كي تُهضم، وإلى قلب أقل ارتجافًا، لكنني كنت أعرف، وأنا أعيد الصورة إلى مكانها، أن ما تركه أبي لم يكن غيابًا عابرًا، بل سؤالًا مفتوحًا، وأن هذا السؤال إن تجاهلته سأكون أنا من اختار الصمت هذه المرة، لا هو.

الفصل الخامس: حين يبدأ الاسم بالثقل

لم يكن الصباح مختلفًا في شكله عن صباحات كثيرة سبقته، الضوء نفسه يتسلل من خلف الستائر الثقيلة، والهواء نفسه يمرّ في الغرفة دون أن يعتذر، لكن داخلي كان في مكان آخر، كأنني استيقظت في جسد يعرف الغرفة جيدًا لكنه لم يعد ينتمي إليها. بقيت في السرير وقتًا أطول مما اعتدت، أراقب السقف الذي حفظ كل أفكاري المؤجلة، وأستعيد الجملة التي كتبها أبي على ظهر الصورة، لا بوصفها كلمات، بل بوصفها وزنًا، شيئًا يستقر على الصدر ويمنع التنفس الطبيعي.

لم أختر النهوض، شعرت فقط أن البقاء مستلقية صار فعلًا مستحيلًا، كأن الجسد نفسه قرر أن الهروب لم يعد خيارًا صالحًا. حين وضعت قدمي على الأرض، شعرت ببرودة البلاط تصعد في العظام، لا كإحساس عابر، بل كتنبيه، كأن المكان يذكّرني بأنني عدت من زمن آخر، وأن عليّ أن أتعامل مع الحاضر كما هو، لا كما كنت أتمنى أن يكون.

في المطبخ، بدا كل شيء في مكانه، الكوب الذي تركته الليلة الماضية، الصحيفة القديمة، الساعة المعلّقة التي لا تزال متأخرة خمس دقائق منذ سنوات، تلك التفاصيل الصغيرة التي تمنح

البيت وهم الاستقرار، بينما في الحقيقة لا شيء مستقر حين يتصدّع المعنى. أعددّت القهوة ببطء، لا لأنني أستمتع بالطقس، بل لأن البطء كان الطريقة الوحيدة كي لا أسبق نفسي، كي لا أصل إلى فكرة لا أملك بعد القدرة على احتمالها.

جلست إلى الطاولة، رشفة بعد أخرى، وكل رشفة كانت أقل طمأنينة من سابقتها، كأن الطعم نفسه تغيّر، أو كأنني أنا من تغيّرت بما يكفي كي لا أتعرف عليه. تذكرت أبي فجأة، ليس صورته، ولا صمته، بل طريقته في شرب القهوة، ذلك التركيز الصامت الذي كان يمنحه للأشياء البسيطة، كأنها آخر ما يملكه، وكأن العالم كله يمكن أن يُختصر في لحظة انتباه صادقة.

حين قررت الخروج، لم أفعل ذلك بشجاعة، ولا باندفاع، بل بشيء أقرب إلى الاستسلام الواعي، استسلام لفكرة أن ما أعرفه لم يعد كافيًا، وأن الجهل الذي كنت أعيش فيه لم يكن براءة بل حماية مؤقتة. ارتديت ملابسي دون تفكير طويل، وكأن التفاصيل فقدت أهميتها، فالملابس لا تغيّر شيئًا حين يكون الاسم نفسه هو العبء.

في الشارع، بدا الناس منشغلين بحياتهم الخاصة، بوجوههم المتعبة، بأحاديثهم الصغيرة، وأنا للمرة الأولى شعرت أنني أنظر إليهم من

خلف زجاج غير مرئي، أراهم ولا أشاركهم الإيقاع نفسه. المدينة لم تكن عدائية، لكنها لم تكن حنونة أيضًا، كانت فقط مدينة تعرف كيف تستمر دون أن تنتظر أحدًا، وهذا بحد ذاته كان درسًا قاسيًا.

كل خطوة كانت تقودني، دون وعي، نحو المكان الذي تجنّبته طويلًا، المبنى الذي ارتبط باسم أبي أكثر مما ارتبط بأي قصة كان يرويها لي. لم أكن أخطط للدخول، كنت أقول لنفسي إنني فقط سأمرّ بالقرب منه، سأراه من الخارج، كأن الرؤية وحدها قد تكفي لإفراغ شيء من الثقل، لكن الأبواب، حين نقترب منها بما يكفي، تفرض أسئلتها الخاصة.

وقفت أمام الواجهة، الحجر الرمادي بدا أكثر برودة مما توقعت، والنوافذ العالية كانت مغلقة كما كانت دائمًا، لا تسمح للنظر بالمرور بسهولة. شعرت للحظة أنني طفلة مرة أخرى، أقف قرب أبي وأنتظر أن يفتح بابًا لا يُشرح ما خلفه. الفرق الوحيد أنني هذه المرة وحدي، ولا أحد سيضع يده على كتفي ليخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام.

دخلت.

لم يكن الدخول دراميًا، لا موسيقى، ولا توقف للزمن، فقط خطوة إلى الأمام، ثم أخرى، لكنني كنت أعرف أن هذه الخطوات، رغم بساطتها، ستفصل بين ما كنت عليه وما سأصبحه. الممر الطويل استقبلني ببرود مؤسسي مألوف، رائحة الورق، الصمت المنظّم، ذلك الإحساس بأن كل شيء هنا خُصّص ليبقى، لا ليُفهم.

كلما تقدمت، كنت أستعيد صمت أبي بطريقة مختلفة، لا كتهرّب، بل كاختيار محسوب، كأن الصمت نفسه كان درعًا، لا له وحده، بل لي أيضًا، وأنا الآن، بإرادتي، أخلع ذلك الدرع دون أن أعرف ما الذي سيصيبني بعده.

لم يكن في الممر أحد يلتفت إليّ، لا لأنني غير مرئية، بل لأن المكان نفسه تعلّم منذ زمن أن الوجوه العابرة لا تستحق الفضول، وأن الأسئلة، حين تُطرح هنا، يجب أن تكون مكتوبة وموقّعة ومؤجَّلة. خطوت ببطء، ليس ترددًا، بل لأن كل خطوة كانت تُعيد ترتيب علاقتي بالاسم الذي أحمله، ذلك الاسم الذي ظننته يومًا مجرد علامة شخصية، واكتشفت الآن أنه كان مفتاحًا، أو عبئًا، أو ربما كليهما معًا.

توقفت أمام باب خشبي داكن، لم يكن عليه اسم أبي، لكنني عرفته دون حاجة إلى دليل، فالأماكن، مثل البشر، تحتفظ بذاكرة غير مكتوبة، وتكشفها لمن يملك الجرأة على الاقتراب. وضعت يدي على المقبض، ولم أفتحه فورًا، شعرت للحظة أن فتحه يشبه الاعتراف، اعترافًا بأنني لم أعد أريد أن أبقى خارج القصة، وأن الجهل الذي احتميت به طويلًا لم يعد يصلح كعذر.

حين دخلت، لم أجد مفاجأة بصرية، المكتب بسيط، منظم أكثر مما توقعت، طاولة واسعة، رفوف مليئة بملفات صامتة، نافذة تطل على ساحة داخلية بلا حركة. كل شيء كان عاديًا إلى حد يثير الريبة، كأن العادية نفسها كانت جزءًا من الخطة، كأن ما جرى هنا لم يكن استثنائيًا في شكله، بل في نتائجه فقط.

جلست على الكرسي المقابل للطاولة، لم يُطلب مني الجلوس، ولم يُمنع، كان ذلك الفراغ في التعليمات جزءًا من اللعبة التي لم أفهم قواعدها بعد. نظرت حولي، محاوِلة أن ألتقط أثرًا واحدًا يدل عليه، حركة، كتابًا، ورقة بخط يده، لكن المكان كان نظيفًا من الأفراد، محتفظًا فقط بوظيفته.

دخل رجل في منتصف العمر، ملامحه لا تحمل قسوة ولا لطفًا، ذلك النوع من الوجوه التي تعلّمت أن تكون محايدة كي تعيش.

نظر إليّ نظرة سريعة، ليست فاحصة، بل تقييمية، ثم جلس دون أن يسألني عن اسمي، كأنه يعرفه مسبقًا، أو كأنه لا يحتاجه.

قال بصوت منخفض، خالٍ من الانفعال، إن حضوري هنا مفهوم، وإن الأسئلة التي أحملها ليست جديدة، لكنها متأخرة. لم أجادل، شعرت أن الجدل سيكون فعلًا طفوليًا في مكان بُني على تأجيل الحقيقة لا إنكارها. سألته عن أبي، لا عن ملفه، ولا عن قضيته، بل عنه هو، عن الرجل الذي عاد إلى البيت كل مساء بصمت أثقل من التعب.

ابتسم ابتسامة صغيرة، لا ساخرة ولا متعاطفة، ثم قال إن أبي لم يكن الرجل الذي يظهر في التقارير، وإنه كان يعرف ذلك جيدًا، لكن المعرفة، كما قال، لا تعني دائمًا القدرة على التغيير. تحدث عن سنوات طويلة من العمل، عن لحظات اضطر فيها الجميع إلى الاختيار بين السيئ والأسوأ، وعن أبي الذي اختار، في لحظة واحدة فقط، أن لا يختار كما اختاروا.

في تلك اللحظة، شعرت أن الاسم الذي ورثته بدأ يضغط على صدري بطريقة مختلفة، لم يعد اسمًا يربطني به عاطفيًا فقط، بل صار شاهدًا، دليلاً، وربما مطالبة غير معلنة بأن أفعل شيئًا لم

يفعله هو. فهمت الآن لماذا كتب تلك الجملة، ولماذا ترك الرسالة ناقصة، لأنه كان يعرف أن الصمت لا ينتهي بالموت، بل ينتقل، كعدوى هادئة، إلى من يبقى.

سألته عمّا حدث بعد تلك اللحظة، فأجاب أن بعض الملفات أُغلقت، وبعضها فُقد، وأن أبي اختفى من المشهد الرسمي كما يختفي من يعرف أكثر مما يجب، دون ضجيج، ودون محاسبة علنية. قال إن الصمت كان الثمن الأقل كلفة، وإن المواجهة، لو حدثت، لم تكن لتُبقي شيئًا قابلًا للترميم.

خرجت من المكتب وأنا أشعر أن المدينة أثقل مما دخلتها، ليس لأن الحقيقة كانت صادمة، بل لأنها كانت منطقية إلى حد القسوة. المنطق، حين يبرر الصمت، يصبح أكثر خطورة من الكذب، لأنه يقنعك أن لا بديل آخر. مشيت في الشارع وأنا أستعيد كل مرة قال فيها أبي «ليس الآن»، وكل مرة غيّر فيها الموضوع، وكل مرة اختار أن يحميني بالجهل.

في تلك اللحظة فقط، أدركت أن الاسم الذي أحمله لم يكن ميراثًا بريئًا، وأن عفراء، بكل ما تحمله الكلمة من صفاء، لم تكن دعوة للنقاء، بل اختبارًا، اختبارًا إن كنت سأختار الصمت كما اختاره، أم سأدفع الثمن الذي لم يستطع دفعه.

لم أصل إلى قرار، ولم أعد إلى البيت أخف، لكنني عرفت شيئًا واحدًا بوضوح لم أعرفه من قبل: أن الرواية الحقيقية لم تبدأ مع غيابه، بل مع اللحظة التي قررتُ فيها أن أفتح الباب، وأن ما سيأتي بعد ذلك لن يكون استعادة للماضي، بل مواجهة لمستقبل لا يسمح بالحياد.

الفصل السادس: الوطن حين يتكلم من الداخل

لم يكن الوطن، في تلك اللحظة، فكرة جاهزة أستحضرها حين أحتاج إلى معنى، بل كان ثِقلًا صامتًا يرافقني منذ خرجت من المبنى، ثقلًا لا يُرى لكنه يُقاس بطريقة المشي، وبعدد المرات التي يتوقف فيها التنفّس دون سبب واضح، وبذلك الشعور الغريب بأنك مسؤول عن شيء لم تختَره، لكنك مع ذلك لا تستطيع التنصّل منه. كنت أسير في الشارع وأشعر أن كل حجر أعرفه يعرفني بدوره، أن الأرصفة التي عبرتها مئات المرات صارت الآن أكثر حضورًا، أكثر مطالبة، كأنها تسألني بصمت عمّا أنوي فعله بكل ما عرفته، وبكل ما قررت أن لا أتجاهله بعد الآن.

لم يكن في المشي عزاء، لكنه كان ضرورة، فالجسد حين يتحرّك يمنح العقل فرصة ليعيد ترتيب الفوضى دون أن ينهار. مررت بأماكن كثيرة دون أن أسميها، لأن التسمية تعني الاعتراف، وأنا لم أكن جاهزة بعد لأن أسمّي كل شيء باسمه الكامل. المقاهي، الساحات، الوجوه العابرة، كلها بدت لي أجزاء من لوحة كبيرة لم أكن أراها من قبل، لوحة لا تحتاج إلى إطار لأنها محيطة بك من كل الجهات، اسمها الوطن، لكن معناها يتغيّر بتغيّر موقعك منها.

جلست أخيرًا في ساحة صغيرة لا يقصدها أحد إلا بالصدفة، أو حين يكون الهروب مؤقتًا، ساحة لا تملك ما يكفي من الجمال لتُزار، ولا ما يكفي من القبح لتُتجنّب. هناك فقط، شعرت أنني أستطيع الجلوس دون أن أؤدي دورًا، دون أن أكون ابنة رجل صامت، أو امرأة ورثت سؤالًا أكبر منها. راقبت الناس، لا بدافع الفضول، بل بدافع الفهم، كأنني أبحث عن انعكاس غير مباشر لما أمرّ به، عن شخص يشبهني دون أن يعرفني.

كان الوطن حاضرًا في كل حركة، في طريقة جلوس امرأة متعبة، في ضحكة شاب تحاول أن تكون أعلى من خوفه، في طفل يركض دون أن يعرف أن الأرض التي يركض عليها محمّلة بتاريخ لا يُحكى. أدركت أن أبي لم يكن يرى الوطن كما يُدرّس، بل كما يُعاش، شيئًا هشًّا يحتاج إلى صمت أحيانًا، وإلى شجاعة مؤلمة أحيانًا أخرى، وأنه اختار، في النهاية، الصمت لأنه ظنّه الشكل الأقل ضررًا للحب.

لكنني، وأنا أجلس هناك، شعرت أن الصمت الذي ورثته ليس صالحًا لي بالطريقة نفسها، ليس لأنني أشجع، بل لأن الزمن تغيّر، ولأن السؤال حين يُؤجَّل طويلًا يتحوّل إلى عبء على من يأتي بعده. كنت أعرف أنني لن أستطيع التراجع إلى ما كنت عليه،

حتى لو أردت، وأن الوطن، حين يبدأ بالكلام من الداخل، لا يمنحك ترف الادّعاء بأنك لم تسمعه.

حين نهضتُ من المقعد الحجري، لم يكن في داخلي شعور بالإنجاز، ولا حتى بالوضوح، بل إحساس ثقيل بأن الجلوس لم يعد ممكنًا، وأن البقاء في المكان نفسه سيحوّل التفكير إلى دوران عقيم. كان عليّ أن أعود، لا إلى البيت فقط، بل إلى تلك النقطة التي بدأت عندها الأسئلة تأخذ شكلًا لا يمكن تجاهله. الطريق إلى البيت بدا أطول من المعتاد، ليس لأن المسافة تغيّرت، بل لأن الذهن كان مزدحمًا إلى درجة جعلت كل خطوة محمّلة بمعنى زائد، وكأن الأرض نفسها تطلب تفسيرًا لوجودي فوقها.

عندما فتحت باب البيت، لم أُشعل الضوء مباشرة، تركت العتمة تستقبلني كما هي، بلا محاولة تلطيف، بلا وعود كاذبة بالطمأنينة. العتمة، على قسوتها، كانت صادقة، لا تخفي شيئًا، ولا تدّعي أن الأمور بخير. وضعت حقيبتي جانبًا، وجلست قليلًا، أستمع إلى الصمت، لا كفراغ، بل كمساحة مكتظّة بما لم يُقَل بعد. كان الصمت هنا مختلفًا عن صمت أبي، أقل حماية، وأكثر مطالبة، كأنه يسألني بصراحة عمّا سأفعله بكل ما صار في حوزتي من معرفة.

أخرجت الدفاتر مرة أخرى، وضعتها أمامي، وبدل أن أفتحها بعجلة، رتّبتها أولًا، واحدًا تلو الآخر، كأن الترتيب فعل احترام، لا للورق، بل لما يحتويه من حياة مؤجلة. حين فتحت الدفتر الثاني، بدأت ألاحظ شيئًا لم أنتبه له في المرة الأولى، طريقة الكتابة نفسها، الجمل الممتدة، الحذر الواضح في اختيار الكلمات، وكأن أبي كان يكتب وهو يعلم أن أحدًا ما سيقرأ يومًا، لا ليحاكمه، بل ليكمل ما لم يستطع هو إكماله.

كانت الصفحات مليئة بتأملات عن العمل، عن الناس، عن ذلك الخط الفاصل بين الواجب والخطر، وبين الانتماء والتورط. لم تكن نصوصًا سياسية، ولا اعترافات مباشرة، بل خرائط ذهنية لرجل يعرف أن الوطن ليس مكانًا آمنًا دائمًا، وأن حبه لا يُقاس بالهتاف، بل بالقدرة على الاستمرار دون أن تفقد نفسك بالكامل. شعرت، وأنا أقرأ، أنني لا أتعرف إلى أبي من جديد فقط، بل أتعرف إلى نفسي، إلى تلك المنطقة في داخلي التي كانت تؤجل الأسئلة بحجة الحياة اليومية.

توقفت عند صفحة كُتب في أعلاها تاريخ قديم، ووجدت جملة طويلة، بلا فواصل تقريبًا، كأنها كُتبت دفعة واحدة خوفًا من التراجع، يقول فيها إن الوطن، حين يطلب الصمت، لا يفعل ذلك

لأنه قوي، بل لأنه هش، وإن الهشاشة لا تعني دائمًا الضعف، لكنها تعني أن أي حركة غير محسوبة قد تترك شرخًا لا يمكن رأبه. شعرت عندها بغصّة، لا لأن الجملة حزينة، بل لأنها منطقية إلى حد موجع، منطق يبرر كل شيء دون أن يبرّئ أحدًا.

أغلقت الدفتر قليلًا، ونظرت حولي، إلى الجدران التي شهدت حياتي العادية، إلى الأشياء التي كنت أظنها ثابتة، واكتشفت فجأة أنها كانت ثابتة لأنني لم أكن أختبرها. الوطن، كما فهمته تلك الليلة، لم يكن خارج هذه الجدران فقط، بل كان في الطريقة التي أختار بها أن أعيش، في الحدود التي أضعها لنفسي، وفي الصمت الذي أقرره أو أكسره. أدركت أن أبي لم يتركني بلا وصية، بل تركني بحرية ثقيلة، حرية أن أقرر إن كنت سأحمل العبء نفسه، أو سأعيد تعريفه.

مع اقتراب الليل من منتصفه، لم أشعر بالنعاس، لكنني شعرت بشيء يشبه الاستعداد، استعداد لا يشبه الحماسة، بل يشبه الوعي البارد الذي يسبق القرارات الكبيرة. عرفت أن الوطن لن يطلب مني بطولة، ولن يمنحني وضوحًا كاملًا، لكنه سيطلب صدقًا مع النفس، وصدقًا كهذا لا يمكن تأجيله إلى ما لا نهاية. كان عليّ، عاجلًا أم آجلًا، أن أخرج من دائرة الفهم إلى دائرة الفعل،

حتى لو كان الفعل صغيرًا، حتى لو بدأ بسؤال واحد يُطرح في مكان لا يحب الأسئلة.

جلست قرب النافذة، أنظر إلى الأضواء البعيدة، وأفكر أن الوطن، حين يتكلم من الداخل، لا يرفع صوته، لا يهدد، ولا يعد، بل يذكّرك فقط بأنك جزء من قصة أكبر، وأن تجاهل هذا الجزء لن يحميك، بل سيتركك عالقًا بين ما تعرفه وما تخشاه. في تلك اللحظة، لم أعد أبحث عن إجابة نهائية، كنت أبحث فقط عن شجاعة البداية، عن الخطوة الأولى التي لا تعني كل شيء، لكنها تعني أنني لم أعد صامتة.

الفصل السابع: حين يصبح السؤال طريقًا

لم يكن التحوّل حدثًا يمكن الإشارة إليه بوضوح، لم تكن هناك لحظة فاصلة أقول عندها إن كل شيء تغيّر، بل كان الأمر أشبه بتبدّل بطيء في طريقة النظر، كأن العدسة نفسها التي أرى بها العالم انزلقت درجة واحدة فقط، لكنها كانت كافية لتجعل المشهد كله مختلفًا. كنت أستيقظ كل صباح وأشعر أن اليوم يحمل ثقلًا إضافيًا، لا بسبب ما سأفعله، بل بسبب ما أعرفه الآن، لأن المعرفة، حين تأتي متأخرة، لا تشبه الاكتشاف، بل تشبه محاسبة صامتة للنفس.

لم أعد أستطيع ممارسة حياتي بالخفّة السابقة، لا لأن التفاصيل تغيّرت، بل لأن معناها لم يعد بريئًا. الطريق نفسه إلى العمل، الوجوه نفسها، التحيات السريعة، كل ذلك صار يبدو لي كطبقة خارجية فقط، تخفي تحتها شبكة معقّدة من الصمت المتواطئ، من القبول غير المعلن، من الاتفاق الضمني على أن الأسئلة الكبيرة لا مكان لها في الحياة اليومية. كنت جزءًا من هذا الاتفاق سابقًا دون أن أوقّع عليه، واليوم فقط أدركت أن عدم التوقيع لا يعفي من المسؤولية.

صرت أعود إلى دفاتر أبي لا بدافع الحنين، بل بدافع الفحص، أقرأها كما يقرأ المرء خريطة قديمة لمدينة لا تزال قائمة، لكن شوارعها تغيّرت. كنت أبحث عن التردد، عن التناقض، عن تلك اللحظات التي كاد فيها أن يقول شيئًا ثم تراجع، لأنني بدأت أفهم أن الإنسان لا يُقاس بما فعله فقط، بل بما اختار ألا يفعله أيضًا. في كل مرة أجد جملة ناقصة، أو فكرة مبتورة، كنت أشعر أنها موجّهة لي شخصيًا، كأن أبي كان يكتب وهو يعرف أن الصمت لن يصمد إلى الأبد، وأن أحدًا ما سيضطر لاحقًا إلى إكمال الجملة.

في العمل، بدأت ألاحظ نفسي أكثر مما ألاحظ الآخرين، أراقب ردود فعلي، صمتي، انحناءاتي الصغيرة التي كنت أظنها لياقة، واكتشفت أنها كانت في كثير من الأحيان خوفًا متقنًا. لم أعد أضحك بسهولة، لا لأنني حزينة، بل لأن الضحك صار يتطلب قدرًا من النسيان لم أعد أملكه. كنت أسمع الجمل العابرة، النكات السياسية الخفيفة، الشكاوى اليومية، وأشعر أن كل ذلك يدور حول الحقيقة دون أن يلامسها، كأننا نعرف أين الجرح، لكننا نتفق على ألا نضع إصبعنا عليه.

في إحدى الأمسيات، جلست وحدي وفتحت دفترًا جديدًا، لم يكن من دفاتر أبي، بل دفتري أنا، ولم أعرف ماذا أكتب في

البداية. الصفحة البيضاء بدت لي أكثر قسوة من أي اعتراف، لأنها لم تحمل تاريخًا ولا ذاكرة، كانت تنتظرني أنا، لا إرثًا أختبئ خلفه. كتبت جملة واحدة فقط، طويلة، مترددة، لم تكن بيانًا ولا اعترافًا، بل سؤالًا، سؤالًا عن الحدود التي نقيمها داخلنا قبل أن نقيمها في الواقع، وعن اللحظة التي يتحول فيها الصمت من حماية إلى خيانة للنفس.

حين انتهيت من الجملة، لم أشعر بالارتياح، لكنني شعرت بأنني عبرت خطًا غير مرئي، خطًا داخليًا، صغيرًا، لكنه حاسم. أدركت أن السؤال، حين يُكتب، لا يعود ملك صاحبه فقط، بل يبدأ بالمطالبة بمسار، وأن المسار، حتى لو كان فرديًا في بدايته، لا بد أن يتقاطع يومًا مع الآخرين. لم أكن أبحث عن مواجهة، ولا عن دور بطولي، كنت فقط أحاول أن أعيش دون أن أضطر إلى خفض بصري كلما اقترب المعنى.

بدأت ألتقي بأشخاص أعرفهم منذ سنوات، وأسمعهم بآذان جديدة، ألتقط التناقضات، التردد، الخوف غير المصرّح به. الوطن، في تلك المرحلة، لم يكن فكرة عامة، بل شبكة علاقات دقيقة، كل خيط فيها مشدود بعناية كي لا ينقطع، وكي لا يُحدث صوتًا. فهمت لماذا كان أبي حذرًا إلى هذا الحد، ولماذا كان الصمت

بالنسبة له خيارًا عقلانيًا، لكنني فهمت أيضًا أن العقلانية، حين تطول أكثر من اللازم، تتحول إلى قيد.

في تلك الأيام، لم أكن أتحرك كثيرًا إلى الأمام، لكنني كنت أبتعد بوضوح عن الخلف، وهذا وحده كان كافيًا ليجعل النوم صعبًا، لا بسبب القلق، بل بسبب اليقظة. اليقظة مؤلمة، لأنها لا تسمح لك بأن تعود الشخص نفسه، ولا تمنحك في الوقت ذاته شخصية جديدة جاهزة. كنت عالقة بين ما كنت عليه، وما لم أصبحه بعد، والوطن، في هذه المنطقة بالذات، لا يكون حنونًا ولا قاسيًا، بل صادقًا فقط.

الفصل الثامن: حين يطلب الطريق شاهدًا

لم يأتِ القرار فجأة، ولم أشعر به وهو يتشكّل في لحظة يمكن الإمساك بها أو الإشارة إليها بوضوح، بل بدأ كتحوّل بطيء في الإحساس بالأشياء، كأن العالم لم يتغير فعلًا، لكن علاقتي به فقدت تلقائيتها القديمة. انتبهت إليه فقط حين صار حاضرًا في تفاصيل صغيرة لا تُلفت النظر عادة؛ في طريقة جلوسي التي صارت أكثر حذرًا، في نبرة صوتي التي فقدت شيئًا من خفتها السابقة، وفي تلك المسافة الجديدة التي بدأت أتركها بيني وبين الأشياء التي اعتدت الاقتراب منها دون تفكير أو حساب. كأن الطريق، الذي بدأ سؤالًا داخليًا خافتًا، قرر أخيرًا أن يطالبني بشاهد، بشيء يتجاوز الوعي الصامت، يتجاوز التأمل الذي لا يكلّف صاحبه سوى القلق، بشيء يمكن أن يُرى، أن يُساء فهمه، أن يُحمَّل نيات لم أقصدها، وأن يُحاسَب عليه الإنسان حتى لو لم يكن مستعدًا لذلك.

لم أكن أبحث عن هذه اللحظة، ولم أتخيّلها على هذا النحو، لكنني كنت أعرف، في مكان عميق لا تصل إليه اللغة بسهولة، أنها قادمة لا محالة، لأن الأسئلة التي لا تجد جسدًا تعيش فيه تتحول مع الوقت إلى عبء ثقيل، إلى نوع من الخيانة الصامتة للنفس،

لا إلى معنى. السؤال، حين يبقى معلّقًا طويلًا، لا يحمي صاحبه، بل يستنزفه، يجعله يعيش في حالة انتظار دائم لشيء لا يأتي، ويحوّل اليقظة إلى تعب بدل أن تكون وعيًا.

في صباح رمادي، لا يحمل أي علامة استثنائية، بلا أحداث لافتة أو إشارات مسبقة، وجدت نفسي أقف أمام باب لم أكن أنوي طرقه يومًا، ولم أخطّط له، ولم أضعه ضمن احتمالاتي الواقعية. كان مكانًا عاديًا إلى حد يكاد يكون محبطًا، بلا رمزية واضحة، بلا هالة، بلا تلك العلامات التي تمنح الإنسان شعورًا زائفًا بالأهمية، ومع ذلك توقفت قدماي أمامه كأنهما تعرفان ما لا أعرفه بعد. شعرت بتردّد حقيقي، لا تردّد الخوف الصريح، بل تردّد الإنسان الذي يدرك أن خطوة واحدة قد تعيد ترتيب أشياء كثيرة في داخله، حتى لو لم تغيّر شيئًا في الخارج.

فكرت أن أعود أدراجي، أن أؤجل، أن أختلق لنفسي عذرًا أنيقًا ومقنعًا، من تلك الأعذار التي لا يلومك عليها أحد، ولا حتى أنت، لكن فكرة التأجيل نفسها بدت لي فجأة امتدادًا لنمط قديم، النمط الذي يجعل الوقت حليفًا للصمت لا للحقيقة، ويمنح الخوف فرصة أن يبدو حكمة. في تلك اللحظة، أدركت أن التأجيل لم يعد حيادًا، بل اختيارًا واضحًا، وأن عدم الفعل، حين تتضح البدائل،

يصبح فعلًا بحد ذاته. طرقت الباب، لا بثقة مصطنعة، ولا بشجاعة معلنة، بل بوضوح هادئ، وهذا وحده كان جديدًا عليّ، كأنني للمرة الأولى أسمح لنفسي أن أفعل شيئًا دون أن أطلب له تبريرًا كاملًا مسبقًا.

لم يكن اللقاء دراميًا، ولم يترافق مع كشف كبير أو جملة فاصلة يمكن أن تغيّر مسار الرواية دفعة واحدة، لكنه ترك في داخلي أثرًا أعمق مما توقعت. الكلمات التي قيلت كانت محسوبة، مدروسة، مشذّبة من الانفعالات، والوجوه كانت حذرة، تعرف أكثر مما تقول، وتقول أقل مما تعرف، لكنني شعرت، للمرة الأولى بوضوح لا لبس فيه، أنني لست وحدي في هذه المنطقة الرمادية التي كنت أظنها حكرًا على قلقي الخاص. ما ظننته يقظة فردية، تجربة شخصية معزولة، كان في الحقيقة حالة موزعة على كثيرين، كل واحد يعيشها بصيغته الخاصة، ويخفيها بالطريقة التي تضمن له الاستمرار دون خسائر فادحة، دون أن يُطلب منه دفع ثمن لا يعرف إن كان قادرًا عليه.

خرجت من هناك وأنا أحمل شعورًا مزدوجًا يصعب فصله؛ طمأنينة خفيفة لأنني لست استثناءً، ولست وحدي في هذا الارتباك، وثقلًا إضافيًا لأن المشاركة لا تعني الحماية، ولأن معرفة

أن الآخرين يشبهونك لا تجعل الطريق أسهل، بل تجعله أكثر تعقيدًا. أن تعرف أنك جزء من حالة لا يعني أنك محصّن، بل يعني أنك مرئي أكثر مما كنت، وأن خطواتك، مهما بدت صغيرة، قد تُقرأ خارج نيتك.

بدأت أفهم، ببطء لكن بوضوح، أن الطريق لا يطلب شجاعة صاخبة ولا مواقف استعراضية، بل ثباتًا هادئًا، قدرة على الوقوف في المنتصف دون أن تنكسر، ودون أن تدّعي بطولة لا تملك أدواتها. الوطن، في هذه المرحلة، لم يعد فكرة عامة، ولا صورة رومانسية، ولا خطابًا يمكن ترديده، بل صار اختبارًا يوميًا في التفاصيل الصغيرة؛ في الجملة التي أختار أن أقولها حين يُتوقع مني الصمت، وفي الصمت الذي أختاره حين يُطلب مني التواطؤ، وفي تلك المنطقة الدقيقة بين النجاة الشخصية والصدق مع الذات.

كنت أتعلم، دون معلم، أن الحافة ليست مكانًا مؤقتًا نعبره ثم نعود، بل موقعًا كاملًا، له لغته الخاصة، وله قوانينه غير المكتوبة، وله ثمنه الذي لا يُدفع دفعة واحدة، بل يُستنزف على مهل، في النوم القلق، وفي العلاقات المتوترة، وفي الإحساس الدائم بأنك لا تنتمي تمامًا إلى أي جهة.

عدتُ إلى البيت مساءً، مرهقة لا من الحركة، بل من الانتباه المستمر، وفتحت الدفتر مرة أخرى، لا لأكتب سؤالًا هذه المرة، بل لأدوّن ما حدث كما هو، بلا تزويق، بلا محاولة لإضفاء معنى أكبر مما يحتمل. أدركت أن الكتابة، حين تخرج من منطقة التأمل الخالص، تصبح شهادة، وأن الشهادة لا تكون دائمًا جميلة، ولا مرتبة، ولا قابلة للإعجاب، لكنها تكون حقيقية، وهذا وحده ما يمنحها قيمتها. كتبت وأنا أعرف أن ما أدوّنه قد لا يغيّر شيئًا ملموسًا في الخارج، قد لا يهزّ واقعًا، ولا يكشف سرًا، لكنه يغيّرني أنا، يغيّر علاقتي بما أعرفه، وما أتجاهله، وما أسمح له أن يستمر داخلي دون مساءلة.

في تلك الليلة، فهمت أبي أكثر من أي وقت مضى، لا من زاوية التبرير السهل، ولا من باب التسامح الكسول، بل من زاوية الإنسان الذي عاش طويلًا على الحافة نفسها، ورأى ما رأيت، وفهم ما بدأت أفهمه الآن، واختار أن يدفع الثمن بطريقة مختلفة، ربما أقل صخبًا، وربما أكثر قسوة على المدى الطويل. لم أعد أراه غائبًا، ولا مجرد ذكرى ثقيلة، بل حاضرًا في كل تردّد أشعر به، وفي كل خطوة أتقدّمها وأنا أعرف أنها ليست آمنة تمامًا، وفي كل مرة أوازن فيها بين ما يجب قوله وما يمكن احتماله.

الوطن، حين يطلب شاهدًا، لا يشرح شروطه، ولا يقدّم ضمانات، ولا يمنحك طمأنينة أخلاقية جاهزة، لكنه يختبر قدرتك على البقاء واقفًا دون أن تنكر ما رأيت، ودون أن تتخلّى عن نفسك بحجة الحكمة. وفي هذا الاختبار، لا يوجد نجاح كامل ولا فشل كامل، بل مسار طويل من المحاولات، من التقدّم والتراجع، من الوضوح والارتباك.

نمت متأخرة، لا لأن الأفكار ازدحمت على غير العادة، بل لأن الطريق، أخيرًا، لم يعد مجرد اتجاه غامض أو فكرة معلّقة، بل صار مساحة أتحرّك داخلها بوعي متزايد، أعرف أنني سأخطئ، وأنني سأتراجع أحيانًا، وربما سأصمت حين لا ينبغي الصمت، لكنني أعرف أيضًا أنني لن أعود إلى ما قبل السؤال، وأن هذا وحده كافٍ ليجعل التعب محتملًا.

وفي هذا الإدراك، الهادئ والمؤلم في آن، شعرت بأنني بدأت أكتب فصلي الحقيقي الأول، لا على الورق فقط، بل في علاقتي مع نفسي، ومع هذا الوطن الذي لا يمنح أبناءه إجابات جاهزة، لكنه لا يتوقف أبدًا عن طرح الأسئلة، وعن مطالبتهم، في لحظة ما، بأن يكونوا شهودًا، حتى لو لم يعرفوا تمامًا على ماذا.

الفصل التاسع: حين تخرج الأسئلة إلى العلن*

لم يكن خروج الأسئلة إلى العلن فعلًا واعيًا بقدر ما كان نتيجة حتمية لتراكم طويل من الانتباه، كأن الداخل حين يمتلئ أكثر مما يحتمل، يضطر إلى التسرب عبر الشقوق الصغيرة في السلوك اليومي، في نبرة الصوت، في طريقة الجلوس، في التوقف غير المبرر قبل الرد. لم أستيقظ ذات صباح وأقرر أن أكون مختلفة، ولم أضع لنفسي خطة أخلاقية أو سياسية، كل ما في الأمر أنني لم أعد قادرة على العودة إلى شكل الحياة الذي يسمح للمرء بأن يكون حاضرًا جسديًا وغائبًا ذهنيًا في آن واحد. شيء ما في داخلي انكسر بهدوء، لا صوت له، لكنه غيّر زاوية الرؤية كلها.

كنت أعرف، حتى قبل أن أجرّبه، أن السؤال حين يخرج إلى العلن لا يطلب إجابة مباشرة، بل يطلب ثمنًا، وأن هذا الثمن لا يُدفع دفعة واحدة، بل يُستوفى على شكل تغيّرات صغيرة، متراكمة، في العلاقات، في النظرات، في الافتراضات التي يبنيها الآخرون حولك دون أن يصرّحوا بها. لذلك لم أفاجأ كثيرًا حين بدأت أشعر بأن حضوري نفسه صار يُقرأ بوصفه علامة، لا مجرد وجود عادي.

في الاجتماع الذي بدا عاديًا في شكله، والمعتاد في مضمونه، كنت أجلس في مكاني نفسه، أستمع إلى الكلمات التي تكررت عشرات المرات من قبل، الكلمات التي تُقال لا لأنها صحيحة، بل لأنها آمنة. لم أكن أنوي التدخل، ولم يكن السؤال قد تبلور في ذهني بصيغة جاهزة، لكنه خرج حين وصلت الجملة إلى حدّ لا يمكن تجاهله، حين بُني قرار كامل على افتراض يعرف الجميع أنه ناقص. رفعت رأسي، وقلت السؤال كما خطر لي، بلا مقدمة، بلا تبرير، بلا محاولة لتخفيف حدته أو إخفائها خلف لباقة زائدة. كان سؤالًا بسيطًا في تركيبه، لكنه ثقيل في دلالته، لأنه لم يترك مساحة للمرور السريع.

لم يستمر الصمت طويلًا، لكنه كان مكثفًا بما يكفي ليكشف الكثير. رأيت الوجوه تتبدل بسرعة مدروسة، رأيت من حاول أن يبدو غير معني، ومن بدا عليه أنه يحسب الكلمات قبل أن تُقال، لا خوفًا من الخطأ، بل خوفًا من الاتساع. الإجابة التي جاءت كانت عامة، مصقولة، تصلح لأن تكون نهاية مريحة للنقاش، لكنها لم تكن نهاية للسؤال، بل بداية خروجه الحقيقي إلى العلن.

بعد ذلك اليوم، لم يتغير شيء بشكل معلن، وهذا ما جعل التغير أكثر وضوحًا. الأشياء التي لا تُعلن تغيّرها تكون عادةً أصدق. صارت المسافات أطول قليلًا، والنقاشات أقصر، وكأن الجميع يتفق ضمنيًا على إعادة ترتيب العلاقة معي دون الحاجة إلى إعلان ذلك. لم أُستبعد، ولم أُواجَه، لكنني صرت موضوعة في خانة جديدة، خانة الاحتمال، والاحتمال دائمًا مقلق لأنه غير محسوم.

كنت أعود إلى البيت وأنا أحمل هذا الثقل الصغير الذي لا يُرى، ثقل أن تدرك أنك لم تعودي شفافة كما كنت، وأن الآخرين بدأوا يقرأونك بعيون مختلفة. لم يكن هذا الإدراك مؤلمًا بقدر ما كان مُربكًا، لأنني لم أكن أبحث عن دور، ولم أرد أن أكون نموذجًا لأي شيء، كل ما أردته هو أن أكون صادقة مع ما أعرفه الآن، ومع ما لم يعد بإمكاني تجاهله.

في تلك الفترة، بدأت ألاحظ كيف تخرج الأسئلة إلى العلن حتى حين لا تُقال. في الجلسات العائلية، في الأحاديث العابرة، في التعليقات التي تُقال بنبرة حيادية لكنها تحمل في داخلها خوفًا قديمًا. حين يُذكر الوطن، لا يُذكر بوصفه واقعًا، بل بوصفه اختبارًا للصبر، وحين يُذكر الصبر، يُذكر كفضيلة مطلقة لا يُسأل عن كلفتها. كنت أسمع هذه الجمل، وأشعر أنني لم أعد قادرة على

مشاركتها بالطريقة نفسها، لا لأنني أرفضها تمامًا، بل لأنني صرت أعرف ما الذي تخفيه.

هنا، فهمت لأول مرة أن السؤال حين يخرج إلى العلن لا يواجه السلطة وحدها، بل يواجه العادة، والعادة أكثر قسوة من السلطة لأنها لا تملك وجهًا محددًا. العادة تُمارس نفسها عبر الجميع، وتطلب منك الامتثال باسم الاستمرار، باسم السلامة، باسم الحياة الطبيعية. والخروج عنها لا يُعاقَب عليه فورًا، بل يُترك ليَنمو كعزلة بطيئة.

عدت إلى دفاتر أبي في تلك الليالي لا بحثًا عن عزاء، بل بحثًا عن سياق. كنت أقرأ ملاحظاته بعين مختلفة، ألاحظ كيف كان يصف الوقائع دون تعليق، وكيف كان يترك مساحات بيضاء كأنها دعوة غير مباشرة للقراءة بين السطور. أدركت أن خروجه من العلن لم يكن نتيجة خوف بسيط، بل نتيجة حساب طويل، حساب لرجل عرف أن السؤال في زمنه لم يكن سيجد حتى مكانًا يقف فيه.

ومع ذلك، كنت أعرف أنني لست أبي، وأن الزمن، حتى لو لم يتغير كثيرًا، يسمح اليوم بهوامش مختلفة، هوامش صغيرة لكنها موجودة. السؤال الآن لا يُسكت فورًا، لكنه لا يُحتفى به أيضًا،

يُترك ليختبر صاحبه، ليقيس قدرته على الاحتمال، على الاستمرار دون ضمانات.

في نهاية الجزء الأول من هذا المسار، لم أكن أشعر بالقوة، ولا بالهزيمة، بل بشيء أقرب إلى الوضوح المؤلم. كنت أعرف أنني بدأت مرحلة لا يمكن الرجوع عنها بسهولة، وأن الأسئلة التي خرجت إلى العلن لن تعود إلى الداخل مهما حاولت. الطريق لم يعد فكرة، بل تجربة حيّة، وأنا، للمرة الأولى، لم أعد مجرد عابرة فيها.

لم يكن الضغط الاجتماعي صاخبًا أو مباشرًا، لم يأتِ في شكل اعتراض واضح أو تهديد معلن، بل تسلل كما تتسلل الرطوبة إلى الجدران، بطيئًا، ثابتًا، يصعب الإمساك به لكنه يغيّر البنية من الداخل. بدأت أشعر به في التفاصيل التي لا يُلتفت إليها عادة، في طريقة طرح الأسئلة عليّ، في نبرة المزاح التي تحمل أكثر مما تقول، في الإشارات الصغيرة التي تُفهم دون أن تُشرح. كنت أتحرك في المساحات نفسها، لكنني لم أعد أُستقبل بالطريقة نفسها، وكأن وجودي بات يحتاج إلى تفسير مسبق.

في العمل، لم يعد الحديث معي عفويًا كما كان، صار البعض يختار كلماته بدقة زائدة، لا بدافع الاحترام، بل بدافع الحذر. لم أعد جزءًا من الدائرة غير المرئية التي تسمح للمرء بأن يكون داخل المشهد دون أن يُلاحظ، بل صرت نقطة تُرصد، لا لأنها خطر، بل لأنها غير متوقعة. هذا التحوّل لم يجرحني بقدر ما أيقظني، لأنني بدأت أفهم كيف يُصنّف الناس بعضهم بعضًا حين يشعرون بأن النظام غير المكتوب مهدد ولو بدرجة بسيطة.

في إحدى الاستراحات، جلست وحدي أراقب المكان كما لو كنت أراه للمرة الأولى. الأصوات، الضحكات، الأحاديث الجانبية، كلها بدت لي جزءًا من مسرحية يومية متقنة، يعرف الجميع أدوارهم فيها دون تدريب. السؤال الذي خرج مني لم يُفسد المسرحية، لكنه أحدث خللًا صغيرًا في الإضاءة، خللًا جعل بعض الزوايا أكثر وضوحًا مما ينبغي. لم يكن هذا الوضوح مريحًا، لا لي ولا لهم.

خارج العمل، كانت العلاقات القديمة تمر بالاختبار نفسه. بعض الأصدقاء اقتربوا أكثر، لا بدافع التضامن المعلن، بل بدافع الفضول الحذر، وكأنهم يريدون أن يعرفوا إلى أي حد يمكن للمرء أن يذهب قبل أن يدفع الثمن. آخرون ابتعدوا بهدوء، ليس كرفض، بل

كإجراء وقائي، لأن القرب من الأسئلة يعرّضك، ولو بشكل غير مباشر، لمسؤولية لا ترغب دائمًا في حملها. لم أُعاتب أحدًا، ولم أفسّر، لأنني بدأت أفهم أن لكل شخص حدوده الخاصة، وأن الوعي لا يُفرض ولا يُستعجل.

في تلك المرحلة، صار الوطن حاضرًا في حياتي لا كفكرة مجردة، بل كشبكة دقيقة من العلاقات والخوف والتواطؤ غير المقصود. فهمت أن الأسئلة التي تخرج إلى العلن لا تُقاس بخطورتها النظرية، بل بقدرتها على كسر الطمأنينة اليومية، تلك الطمأنينة التي تجعل الناس يواصلون حياتهم وهم يعتقدون أن الأمور، رغم كل شيء، تحت السيطرة. السؤال يزعزع هذا الاعتقاد، حتى لو لم يقدّم بديلًا واضحًا.

بدأت تصلني إشارات غير مباشرة، نصائح مغلّفة بالحرص، تذكيرات بأن "المرحلة حساسة"، وأن "الكلام محسوب"، وأن "النوايا الطيبة لا تحمي دائمًا". كنت أسمع هذه الجمل وأفهمها، لم أرفضها، ولم أجادل، لكنني لم أعد أستطيع أن أتعامل معها كحقائق مطلقة. أدركت أن الخوف، حين يُصاغ بلغة العقل، يصبح مقنعًا إلى درجة يصعب مقاومتها، وأن أكثر ما يخشاه السؤال هو أن يُقنع صاحبه بالتراجع باسم الحكمة.

في إحدى الليالي، جلست وحدي طويلًا، أستعيد تفاصيل الأيام الماضية، وأحاول أن أفهم إن كنت قد تجاوزت حدًا لم أكن مستعدة لتبعاته. لم أشعر بالندم، لكنني شعرت بثقل الاختيار، لأن الاختيار، حتى حين يكون صامتًا، لا يعفيك من نتائجه. كنت أعرف أن بإمكاني التراجع، أن أعود إلى المساحة الآمنة، أن أستعيد شفافتي السابقة، لكنني كنت أعرف أيضًا أن هذا التراجع لن يكون بريئًا، وأنني سأحمله داخلي ككسر غير مرئي.

عدت إلى دفتر الكتابة، وبدأت أدوّن ليس ما يحدث فقط، بل ما لا يُقال، تلك المنطقة الرمادية التي يعيش فيها معظم الناس دون أن يسمّوها. كتبت عن الخوف حين يتخذ شكل نصيحة، وعن الصمت حين يُقدَّم بوصفه فضيلة، وعن الشجاعة الصغيرة التي لا تُصفّق لها الجماهير، لكنها تغيّر صاحبها إلى الأبد. كنت أكتب ببطء، لأنني لم أعد أبحث عن الجملة الجميلة، بل عن الجملة الصادقة، حتى لو كانت ثقيلة.

في خضم هذا كله، بدأت ألاحظ أن السؤال، رغم كلفته، يفتح أيضًا مساحات جديدة للفهم. أشخاص لم أتوقع منهم شيئًا صاروا أكثر وضوحًا، ليس بالضرورة أكثر جرأة، لكن أكثر صدقًا في اعترافهم بحدودهم. هذا الوضوح لم يخلق تحالفات، لكنه خلق

معرفة، والمعرفة، حتى حين تكون موجعة، تمنحك أرضًا أكثر صلابة للوقوف.

كنت أدرك، وأنا أتحرك في هذه المرحلة، أن المواجهة الحقيقية لم تبدأ بعد، وأن ما أعيشه ليس سوى تمهيد، اختبار مبكر لقدرتي على الاستمرار دون أن أتحول إلى نسخة قاسية من نفسي. السؤال خرج إلى العلن، نعم، لكنه لم يطالبني بعد بدفع الثمن كاملًا، كان يراقبني، يختبر ثباتي، يترك لي مساحة لأتعلّم قبل أن يضيق الطريق أكثر.

وفي هذا الإدراك، شعرت بأنني أقف على عتبة جديدة، عتبة لا تسمح لي بالادعاء، ولا تمنحني بطولات جاهزة، لكنها تضعني أمام خيار واحد واضح: إما أن أواصل السير وأنا واعية بما أفعله، أو أن أعود وأنا أعرف تمامًا ما الذي أتنازل عنه.

الفصل العاشر: حين يتكشّف الوطن في المرآة

لم يكن الصباح الذي استيقظت فيه عفراء شبيهًا بأي صباح عرفته من قبل، لا لأن الشمس تأخرت عن عادتها، ولا لأن الريح بدت أقل صخبًا، بل لأن ثقلًا خفيًا كان قد استقر في صدرها منذ اللحظة الأولى التي فتحت فيها عينيها، ثقل يشبه الإحساس بأن شيئًا ما قد تغيّر إلى الأبد، وأن العودة إلى ما قبل هذا اليوم لم تعد ممكنة مهما حاولت الذاكرة أن تخادع نفسها. نهضت ببطء، كأن الأرض صارت أكثر لزوجة تحت قدميها، وكأن الهواء ذاته يطالبها بأن تتحرّك بحذر، فهي لم تعد تلك المرأة التي كانت بالأمس، ولم يعد الوطن هو ذاته الذي كانت تراه من نافذة غرفتها.

جلست قرب النافذة، تتأمل الساحة القديمة التي شهدت طفولتها، حيث كانت البيوت الحجرية تصطفّ كجنودٍ متقاعدين، يحمل كلٌّ منها قصة هزيمة أو انتصار، وحيث الأشجار العتيقة تمدّ جذورها عميقًا في الأرض، كأنها تحاول أن تثبت انتماءها أكثر من البشر أنفسهم. شعرت عفراء أن هذه الساحة تعرفها أكثر مما تعرف هي نفسها، تعرف خوفها المكتوم، وتعرف ذلك السؤال الذي ظلّ يتردّد في داخلها منذ أن بدأت الأحداث تتسارع: هل يمكن

للوطن أن يخذل أبناءه، أم أن الأبناء هم من يخونون أوطانهم حين يعجزون عن حمايتها؟

ارتدت ثوبها بتؤدة، ولم تختره عبثًا، بل كأنها كانت تُجري طقسًا صامتًا للمواجهة المقبلة، فالألوان لم تعد مجرد زينة، بل صارت لغة غير منطوقة، والملابس إعلان موقف، حتى أبسط التفاصيل باتت محمّلة بدلالات لا تُغتفر. وهي تمشط شعرها، لمحت في المرآة انعكاس وجهٍ بدا مألوفًا وغريبًا في آن واحد، وجه امرأة تحمل ملامح القوة لكنها تعرف في أعماقها كم كلّفها هذا الثبات، وكم من الليالي دفنت فيها ضعفها كي لا يراه أحد.

خرجت إلى الشارع، وكان الناس يسيرون وكأنهم يؤدّون أدوارهم في مسرحية طويلة لم يختاروها، بعضهم يشيح بوجهه، وبعضهم يراقب من طرف خفي، وآخرون يتبادلون همسات قصيرة سرعان ما تنقطع عند أول نظرة غريبة. أدركت عفراء أن الوطن في هذه اللحظة لا يُقاس بالخرائط ولا بالشعارات، بل يُقاس بمدى قدرة الناس على النظر في عيون بعضهم دون خوف، ودون أن يشعروا أنهم متهمون لمجرد أنهم موجودون.

حين وصلت إلى المبنى الذي كان ينتظرها، توقفت للحظة قبل أن تعبر العتبة، شعرت أن هذه الخطوة ليست انتقالًا في المكان فقط، بل عبورًا رمزيًا إلى مرحلة لا عودة عنها، مرحلة تُختبر فيها القناعات، وتنكشف فيها النوايا، ويُعاد فيها تعريف الانتماء لا بوصفه شعارًا، بل بوصفه مسؤولية موجعة. رفعت رأسها، واستجمعت ما تبقّى من هدوئها، ثم دخلت، وهي تعرف في قرارة نفسها أن هذا الفصل لن يُغلق بسهولة، وأن ما سيحدث بعده لن يكون امتدادًا طبيعيًا لما قبله، بل كسرًا حادًا في السرد، وفي الحياة معًا.

ما إن خطت عفراء داخل المبنى حتى أحسّت أن الجدران نفسها تراقبها، ليست جدرانًا صمّاء كما تبدو، بل ذاكرة متراكمة من الأصوات والقرارات والوجوه التي مرّت من هنا وتركَت أثرها، بعضها خرج مرفوع الرأس وبعضها خرج محنيًّا تحت وطأة ما لم يحتمله. كان الصمت كثيفًا إلى درجة أنها سمعت وقع خطواتها بوضوح مبالغ فيه، كأن المكان يتعمّد تذكيرها بأنها لم تعد مجرد شاهدة على ما يجري، بل صارت جزءًا من المشهد، وربما من الاتهام أيضًا.

جلست في القاعة الواسعة حيث تتقاطع المصالح وتتصادم الرؤى، وحيث تُصاغ الكلمات بعناية لا لتقول الحقيقة كاملة، بل لتخفي منها ما يكفي كي تبقى اللعبة مستمرة. وجوه مألوفة تحيط بها، رجال ونساء يحمل كلٌّ منهم ملامح رسمية تخفي خلفها قصصًا شخصية متشابكة مع هذا الوطن، بعضهم آمن يومًا بما يقول، وبعضهم تعلّم أن الإيمان رفاهية لا تسمح بها الظروف. كانت عفراء تراقب التفاصيل الصغيرة: ارتجافة يد، نظرة سريعة، زفير مكبوت، لأنها تعرف أن الحقيقة غالبًا ما تسكن هذه الهوامش، لا في الخطب الرنّانة.

حين بدأ الحديث، لم يكن مباشرًا، بل دار حول نفسه كما تفعل الرياح حين تبحث عن منفذ، كلمات عن الاستقرار، عن المصلحة العامة، عن ضرورة التنازل المؤلم من أجل البقاء، وكل جملة كانت تُلقى وكأنها اختبار صامت لمدى استعداد الجميع للقبول بما لا يُقال. شعرت عفراء أن الدور يقترب منها، وأن الصمت الذي التزمته لم يعد درعًا بل صار عبئًا، فالصمت في لحظات كهذه قد يُقرأ بوصفه موافقة، أو خوفًا، أو خيانة مستترة.

وحين التفتت الأنظار إليها أخيرًا، لم تتعجل الرد، تركت لحظة صمت قصيرة لكنها مثقلة بالدلالات، كأنها تمنح نفسها والعالم فرصة أخيرة للتراجع، ثم تكلّمت بصوت هادئ لا يخلو من صلابة مكتسبة عبر التجربة لا الادعاء. لم ترفع صوتها، ولم تلجأ إلى الشعارات، بل قالت ما شعرت أنه يجب أن يُقال، عن وطن لا يمكن إنقاذه بقرارات مؤقتة، ولا يمكن حمايته بإقصاء أبنائه أو إسكات أسئلتهم، وطن يحتاج إلى شجاعة الاعتراف قبل أي خطة أو بيان.

تباينت ردود الفعل، بعض الوجوه شدّت ملامحها انزعاجًا، وبعضها بدا مرتاحًا لأن أحدًا تجرأ أخيرًا على كسر النمط، وآخرون اكتفوا بالمراقبة، كما لو كانوا ينتظرون النتيجة قبل أن يحددوا موقعهم. أدركت عفراء أن ما قالته لن يمرّ دون ثمن، وأن الكلمات، مهما بدت مجردة، يمكن أن تكون أفعالًا كاملة الأثر، وأن الوطن حين يُقال بصدق، يصبح عبئًا ثقيلًا على من اعتادوا استخدامه قناعًا.

مع انتهاء الجلسة، خرجت إلى الرواق الطويل، وكان الضوء المتسلّل من النوافذ العالية يرسم ظلالًا متكسّرة على الأرض، تشبه تمامًا صورة الوطن في هذه المرحلة، وطنٌ لا يزال قائمًا، لكنه ممتلئ بالشقوق التي لا يمكن تجاهلها. شعرت بتعبٍ عميق،

لكنه لم يكن تعب الجسد، بل إرهاق من حمل الأسئلة دون ضمانات، ومن اختيار المواجهة بدل السلامة.

لم تخرج عفراء من المبنى وهي تشعر بالانتصار، ولا حتى بالرضا، بل بشيء أقرب إلى الانكشاف، كأنها تركت جزءًا منها معلّقًا في تلك القاعة، بين الكلمات التي قيلت وتلك التي ابتلعتها الوجوه بصمت. كان الهواء في الخارج أخفّ، لكنه لم يكن مريحًا، يحمل برودة خفيفة جعلتها تدرك أن ما حدث لم يكن لحظة عابرة، بل بداية سلسلة من الارتدادات التي ستصلها، شاءت أم أبت. مشت ببطء، لا لأنها مترددة، بل لأنها كانت تحاول أن تعيد ترتيب الداخل، أن تفهم كيف يمكن لجملة واحدة صادقة أن تغيّر شكل اليوم، وربما مسار حياة كاملة.

في الطريق، لاحظت وجوه الناس أكثر من المعتاد، البائع الذي يصفّ بضاعته بترتيب دقيق رغم قلة الزبائن، المرأة التي تشدّ يد طفلها كأنها تحميه من شيء غير مرئي، الشاب الذي يتكئ على جدار متهالك وينظر إلى البعيد بلا تعبير واضح. شعرت أن الوطن لا يعيش في القاعات المغلقة وحدها، بل هنا، في هذه التفاصيل اليومية التي لا تحضر في التقارير ولا في الخطب، وأن أي كلام

عن الإنقاذ أو الإصلاح يبقى ناقصًا إن لم يمرّ من هنا، من هذه العيون التي تعلّمت أن تتوقع القليل كي لا تُخذل كثيرًا.

حين وصلت إلى البيت، كان الصمت أثقل مما توقعت. جلست دون أن تشعل الضوء، وكأن العتمة تمنحها مساحة أوسع للتفكير دون رقابة. بدأت تستعيد ما قيل، لا لتندم، بل لتفهم، كانت تدرك أن بعض الكلمات ستُقتطع من سياقها، وأن نواياها لن تكون جزءًا من السرد الذي سيصل إلى الآخرين. ومع ذلك، لم تشعر بالخوف بقدر ما شعرت بالحزن، حزن على وطن يحتاج إلى شجاعة أفراده ليبقى، لكنه يعاقبهم حين يتحلّون بها.

اتصلت بها أمها في ساعة متأخرة، لم تسأل مباشرة عمّا حدث، بل اكتفت بسؤال بسيط عن يومها، وكأنها تعرف أن بعض الأيام لا تُحكى دفعة واحدة. أجابت عفراء باقتضاب، لا لأنها تخفي، بل لأنها كانت تعرف أن الكلمات تحتاج وقتًا لتستقر قبل أن تُقال. أنهت المكالمة وهي تشعر بدفء خفيف، إدراك صغير بأن العائلة، رغم هشاشتها، تبقى مساحة أمان مؤقتة، حتى حين تعجز عن الحماية الكاملة.

في اليوم التالي، بدأت الإشارات الأولى تصل، نظرات مختلفة، همسات، رسائل غير مباشرة تحمل في طياتها تحذيرًا أو تأييدًا

خجولًا، وأحيانًا مجرد فضول. لم تُفاجأ، لكنها شعرت بثقل المسؤولية يتضاعف، لأن الكلام، حين يخرج إلى العلن، لا يعود ملك صاحبه وحده، بل يصبح مادة لتأويلات الآخرين، كلٌّ يحمّله ما يشاء من خوفه أو أمله.

جلست إلى دفترها مرة أخرى، لا لتسجّل ما جرى فحسب، بل لتفهم موقعها الجديد. كتبت عن المرآة التي لم تعد تعكس وجهها فقط، بل صورة وطن كامل يتكسّر فيها، وعن الإحساس الغريب بأن المواجهة الحقيقية ليست مع الآخرين، بل مع الرغبة الداخلية في التراجع، في اختيار السلامة على الصدق. أدركت أن الفصل العاشر لم يكن نهاية، بل نقطة ذروة مؤقتة، وأن ما ينتظرها ليس انفجارًا واحدًا، بل سلسلة اختبارات صامتة، يومية، تتطلب صبرًا لا يقل صعوبة عن الشجاعة.

في تلك الليلة، لم تنم بسهولة، لكنها لم تشعر بالضياع. كانت تعرف، للمرة الأولى بوضوح، أن الوطن الذي تراه في المرآة ليس مثاليًا ولا قابلًا للتجميل السريع، لكنه حقيقي، وأن مواجهته، مهما كانت موجعة، أفضل من العيش في صورته المزوّرة. ومع هذا الإدراك، الهادئ والعميق، أغلقت الدفتر، لا لأنها انتهت من

الكتابة، بل لأنها عرفت أن بعض الفصول تُعاش قبل أن تُكتب، وأن القادم، مهما كان ثقيلاً، لن يفاجئها تمامًا بعد الآن.

الفصل الحادي عشر: ما يبقى بعد أن يهدأ الصوت

لم تكن الأيام التي تلت ما حدث صاخبة كما توقعت عفراء، بل كانت هادئة إلى حدّ أربكها، هدوء يشبه ما يأتي بعد العاصفة حين يبدو كل شيء في مكانه، بينما تعرف في داخلك أن ترتيبًا خفيًا قد تغيّر إلى الأبد. لم تُستدعَ، لم تُسأل مباشرة، ولم تواجه ردًّا علنيًا واضحًا، لكن هذا الصمت لم يكن فراغًا، بل كان مساحة مراقبة، كأن الوطن نفسه يضعها تحت مجهر غير مرئي، يختبر قدرتها على الاستمرار دون ضجيج، وعلى الثبات دون تصفيق.

عادت إلى إيقاع حياتها اليومية، لكن الإيقاع لم يعد بريئًا، كل حركة صارت محسوبة، وكل كلمة تمرّ عبر فلتر داخلي لم يكن موجودًا من قبل. في العمل، لاحظت كيف تغيّرت المسافات بينها وبين الآخرين، لا قطيعة كاملة، ولا قرب سابق، بل تلك المنطقة الرمادية التي تُنشئها الحذر. بعضهم صار ألطف من اللازم، كأن اللطف اعتذار غير معلن، وبعضهم صار رسميًا أكثر، وكأن الرسمية درع يحمي من الانخراط في ما لا يريدون تحمّل تبعاته.

كانت تمشي في الشوارع نفسها، لكن المدينة لم تعد الخلفية الصامتة لحياتها، بل نصًا موازيًا تقرؤه بعين مختلفة. الجدران المتشققة لم تعد مجرد إهمال، بل سجلًا طويلًا من التأجيل، الوجوه المتعبة لم تعد

عابرة، بل أسئلة معلّقة بلا أجوبة. شعرت أن الوطن لا يعاقب أبناءه دائمًا بالقمع المباشر، بل بالإرهاق البطيء، بجعل الاعتياد أقوى من الغضب، والاستمرار أقوى من الرغبة في التغيير.

في إحدى الأمسيات، زارتها صديقة قديمة، لم تتحدثا مباشرة عمّا جرى، لكن الحديث دار حول أشياء قريبة منه، حول الخوف، حول الخيارات الصغيرة التي تصنع مسارات كاملة دون أن ننتبه. أدركت عفراء أن ما قالته سابقًا بدأ يتحرّك في حياة الآخرين، لا كشعار، بل كقلق، كشرخ صغير في يقين مستقر. وهذا الإدراك لم يمنحها نشوة، بل زاد من شعورها بالمسؤولية، لأن الأفكار، حين تنتقل، لا يمكن استدعاؤها أو التحكم بمصائرها.

عادت إلى دفاتر أبي مرة أخرى، لا لتبحث عن إجابات، بل لتقارن المسارين، مساره ومسارها، واكتشفت أن الاختلاف لم يكن في الموقف فقط، بل في الزمن. أبيها عاش في زمن كان الصمت فيه شكلًا من أشكال النجاة الجماعية، أما هي فتعيش في زمن صار فيه الصمت مساهمة غير مباشرة في إدامة الاختلال. لم تلُم أباها، لكنها لم تعد قادرة على وراثة خياره بالكامل، لأن الوراثة، حين لا تُراجع، تتحول إلى عبء لا إلى جذور.

بدأت تشعر بتعب مختلف، ليس تعب الجسد، بل تعب الوعي المستمر، ذلك النوع من الإرهاق الذي لا يسمح لك بأن تعود إلى الغفلة، ولا يمنحك في الوقت ذاته يقينًا كافيًا للراحة. كانت تعرف أن الطريق الذي دخلته طويل، وأن الفصل الحادي عشر ليس إلا بداية مرحلة جديدة، مرحلة أقل درامية، لكنها أكثر قسوة، لأن الأسئلة فيها لا تُطرح بصوت عالٍ، بل تُعاش يوميًا في التفاصيل الصغيرة، في الاختيارات التي لا يلاحظها أحد، لكنها تصنع الفارق على المدى البعيد.

وفي لحظة صادقة مع نفسها، اعترفت بأنها لا تعرف إلى أين سينتهي هذا المسار، لكنها تعرف شيئًا واحدًا فقط: أنها لم تعد قادرة على التراجع دون أن تخسر نفسها. الوطن، في هذه المرحلة، لم يكن عدوًا ولا حبيبًا، بل مرآة قاسية، وكل ما تريده هو أن تقف أمامها دون أن تنكسر، حتى لو لم تتعرّف على صورتها كاملة بعد.

لم تكن عفراء تنتظر نتيجة محددة، لكن الانتظار نفسه صار حالة يومية، كأن الزمن توقّف عند مساحة رمادية لا تسمح لها بالمضي قدمًا ولا تعيدها إلى ما كانت عليه. كانت تدرك أن ما يحدث ليس عقابًا واضحًا ولا مكافأة مستحقة، بل اختبار صامت، من

تلك الاختبارات التي لا تُعلن أسئلتها ولا تُعطى لها مهلة زمنية، اختبار القدرة على الاستمرار دون ضمانات، وعلى الحفاظ على التماسك الداخلي حين لا يصفّق أحد ولا يعترض أحد في الوقت ذاته. هذا النوع من الفراغ كان أكثر إنهاكًا من المواجهة، لأنه يتركك وحيدًا مع تقديراتك، مع شكوكك، مع ذلك الصوت الداخلي الذي لا يكف عن السؤال: هل كان ما فعلته كافيًا؟ أم أكثر مما يجب؟ أم أقل من اللازم؟

في الأيام التالية، بدأت تلاحظ كيف يتغيّر تعامل المؤسسات الصغيرة معها، كيف تتأخر بعض المعاملات دون سبب مباشر، وكيف تُعاد بعض الطلبات بصيغ مهذبة تخفي وراءها قرارًا غير مكتوب. لم يكن هناك من يقول لها «لا» صراحة، لكن الـ«نعم» لم تعد سهلة كما كانت. فهمت، دون أن يشرح لها أحد، أن الوطن لا يحتاج دائمًا إلى رفع صوته ليضع حدوده، وأن الرسائل الأكثر فاعلية هي تلك التي تُفهم دون أن تُقال، لأنها تترك للمتلقي عبء التأويل، وعبء القرار، وعبء التعايش مع العواقب.

كانت تعود إلى البيت في المساء محمّلة بتفاصيل لا يمكن مشاركتها بسهولة، تفاصيل لا تصلح للشكوى ولا للتحليل السريع، لأنها ببساطة لم تكن مكتملة بعد. جلست أكثر من مرة أمام الدفتر،

تكتب ثم تمزّق، لا لأنها خائفة مما ستكتبه، بل لأنها شعرت أن الكلمات، في هذه المرحلة، يجب أن تُختار بدقة أشبه بالاقتصاد الأخلاقي، حيث كل جملة قد تصبح دليلًا أو التزامًا أو أثرًا لا يمكن التراجع عنه. أدركت أن الكتابة، حين تتحول إلى فعل علني، لا تعود ملاذًا خالصًا، بل مسؤولية.

شيئًا فشيئًا، بدأت تفهم أن ما يحدث معها ليس استثناءً، بل نموذجًا مصغّرًا لما يمرّ به كثيرون ممن اختاروا أن يتحركوا خطوة واحدة خارج النسق المألوف. الوطن لا يُقصيهم دفعة واحدة، بل يحيطهم بطبقة كثيفة من التعقيد، تجعل كل خطوة لاحقة أكثر كلفة من سابقتها. هذا الإدراك لم يخفف عنها، لكنه منحها نوعًا من الوضوح، والوضوح، حتى حين يكون مؤلمًا، أفضل من الغموض الطويل.

في إحدى الليالي، حلمت بأبيها، لم يكن الحلم واضح التفاصيل، لكنه ترك فيها إحساسًا قويًا بالمسافة، ليس المسافة بين الأحياء والأموات، بل المسافة بين جيلين عاشا الوطن نفسه بشروط مختلفة. استيقظت وهي تفكّر أن أباها ربما كان سيختار خيارًا آخر لو عاش زمنها، أو ربما كانت هي ستختار الصمت لو عاشت زمنه. هذه الفكرة لم تكن مريحة، لكنها كانت عادلة، لأنها نزعت

عن القصة بعدها الأخلاقي السطحي، ووضعتها في سياقها الإنساني المركّب.

بدأت تتعامل مع يومها على أنه مساحة تمرين، لا معركة نهائية. لم تعد تبحث عن أثر سريع، ولا عن اعتراف علني، بل عن قدرة على الحفاظ على خطّ داخلي مستقيم وسط انحناءات الواقع. صارت تختبر نفسها في التفاصيل الصغيرة؛ في جملة تقولها بدل أخرى، في توقيت الصمت بدل توقيت الكلام، في اختيار المعركة التي تستحق أن تُخاض، وتلك التي يكفي أن تُسجّل في الذاكرة دون استنزاف.

الفصل الثاني عشر: ما لا يعود إلى الظل

لم يعد بالإمكان إرجاع الأشياء إلى أماكنها الأولى، لا لأن ما حدث كان جللًا بالمعنى الظاهر، بل لأن التغيّر حين يرسخ لا يحتاج إلى إعلان، يكفيه أن يصبح جزءًا من طريقة العيش. عفراء أدركت ذلك في صباح بدا عاديًا إلى حدّ الإزعاج، صباح لم يحمل خبرًا، ولا مواجهة، ولا إشارة واضحة، لكنه كشف لها، من دون قصد، أن العالم من حولها بدأ يتعامل معها بوصفها شخصًا لا يمكن تجاهله تمامًا ولا احتواؤه بسهولة، وهذا الموقع المعلّق كان أثقل مما توقعت، لأنه يضعك في مرمى التوقّعات المتناقضة دون أن يمنحك أدوات جاهزة للتعامل معها.

في العمل، لم تتغير المهام كثيرًا، لكن النبرة تغيّرت، التفاصيل الصغيرة التي لا تُدوَّن في أي سجل رسمي بدأت تشي بأن حضورها لم يعد محايدًا كما كان، بعض النظرات صارت أطول، بعض الجمل صارت أكثر التفافًا، وبعض الصمت لم يعد بريئًا. لم يكن أحد يتهمها بشيء، ولم يكن أحد يمدحها، لكنها شعرت بأنها أصبحت نقطة مرجعية غير معلنة، كأن وجودها نفسه يذكّر الآخرين بما يفضّلون نسيانه. هذا النوع من الحضور لم يكن اختيارًا

واعيًا، لكنه نتيجة طبيعية لمسار لم تعد قادرة على التراجع عنه دون أن تخون ما أصبحت تعرفه.

خارج العمل، بدأت الدوائر تضيق وتتبدل. بعض العلاقات خفّت تلقائيًا، لا بسبب خلاف، بل بسبب اختلاف الإيقاع الداخلي، وبعض الأشخاص اقتربوا بحذر، كأنهم يريدون أن يختبروا المسافة الآمنة قبل أن يقولوا ما في صدورهم. فهمت عفراء أن الكلام المؤجّل يجد طريقه دائمًا حين يشعر أن هناك من يستطيع احتماله دون أن يحوّله إلى سلاح. لم تكن هذه الاعترافات كبيرة أو درامية، لكنها كانت كافية لتكشف لها أن ما ظنته مسارًا فرديًا بدأ يتقاطع مع مسارات أخرى، وأن السؤال الذي حملته وحدها في البداية لم يعد يخصها وحدها.

في إحدى الجلسات الطويلة، استمعت أكثر مما تحدثت، وتركت للآخرين مساحة قول ما لم يقولوه من قبل. لاحظت كيف يتشابه الخوف رغم اختلاف أسبابه، وكيف تتشابه الحجج التي نستخدمها لتبرير الصمت، وكيف يبدو الوطن، في روايات الجميع، مكانًا مألوفًا ومربكًا في آن واحد. لم تشعر بالتفوق، ولم تشعر بالقيادة، بل بشيء أثقل وأكثر واقعية: المسؤولية غير المعلنة عن الأثر الذي تتركه حين تختار أن تكون واضحة.

في تلك المرحلة، عادت دفاتر أبي إلى الواجهة، لا بوصفها دليلًا أو مرجعية، بل بوصفها سياقًا، سياقًا يساعدها على فهم أن ما تعيشه الآن ليس خروجًا عن التاريخ، بل امتدادًا له بصيغة مختلفة. قرأت بعض الصفحات بعيون أقل غضبًا وأكثر إنصافًا، ورأت في تردده ما كانت تراه في نفسها، وفي حذره ما بدأت تفهم ضرورته، لا لتتبناه بالكامل، بل لتعرف حدوده. أدركت أن الشجاعة ليست نفي الخوف، بل معرفة حجمه الحقيقي، وعدم السماح له بأن يحدّد كل الخيارات.

الكتابة، في هذا الفصل من حياتها، لم تعد مساحة تأمل فقط، بل صارت وسيلة ترتيب، ترتيب الداخل قبل أن يفيض على الخارج. كتبت دون استعجال، دون رغبة في إقناع أحد، فقط لتثبيت الوقائع كما عاشتها، لا كما يُفترض أن تُروى. كانت تعرف أن النص، حين يكتمل، قد لا يُنشر، وقد لا يُقرأ، لكنه كان ضرورة داخلية، لأن ما لا يُكتب يبقى عالقًا، يثقِل الذاكرة ويشوّش البوصلة.

مع مرور الوقت، بدأت تشعر أن الظل الذي كانت تعيش فيه سابقًا لم يعد متاحًا بالسهولة نفسها، لا لأن الضوء صار أقوى، بل لأن قدرتها على الاختباء تراجعت. لم يعد بإمكانها الادّعاء بعدم

المعرفة، ولا الاحتماء بالمسافة الآمنة التي كانت تفصلها عن الأسئلة الكبرى. هذا الإدراك لم يكن مريحًا، لكنه كان صادقًا، والصراحة مع الذات، وإن أتعبت، تمنح نوعًا من الاستقرار لا يشبه الطمأنينة، لكنه أقرب إلى السلام المؤقت.

في نهاية هذا الفصل، لم تكن عفراء قد وصلت إلى خلاصة نهائية، ولم تكن تنتظرها أصلًا. كانت تعرف فقط أن ما خرج من الظل لا يعود إليه كما كان، وأن الطريق، الذي بدأ بسؤال، ثم طالب بشاهد، صار الآن يطالب بالاستمرارية. الاستمرارية لا تعني التصعيد الدائم، ولا المواجهة المفتوحة، بل القدرة على البقاء في المسار دون إنكار، دون تزوير داخلي، ودون رغبة في النجاة الفردية على حساب المعنى.

وهكذا، دخلت المرحلة التالية وهي تدرك أن الوطن لا يتغير دفعة واحدة، وأن الأفراد لا يحملون أثقاله ليحرروه، بل ليعيدوا تعريف علاقتهم به، خطوة خطوة، فصلًا بعد فصل، حتى وإن لم يكن هناك نهاية واضحة تلوح في الأفق.

الفصل الثالث عشر: ثمن الوضوح

لم يكن الوضوح، كما اكتشفته عفراء في هذه المرحلة، حالة ذهنية مستقرة يمكن الوصول إليها ثم الاستقرار فيها، بل كان وضعًا مكشوفًا طويل الأمد، أشبه بالوقوف في ساحة بلا ظلال، حيث لا يمكنك الادعاء بأنك لم تُرَ، ولا تملك في الوقت نفسه قدرة حقيقية على التحكم في كيفية رؤيتك. منذ اللحظة التي بدأت فيها تشعر بأن اختياراتها لم تعد قابلة للتأويل المريح، فهمت أن الوضوح لا يجعل الطريق مستقيمًا، بل يجعله مكشوف الحواف، بحيث يظهر كل تعثّر مهما كان بسيطًا، وكل تردّد مهما كان إنسانيًا.

كانت تمشي في أيامها كمن يحمل شيئًا هشًا داخل صدره، لا يخشاه لأنه ضعيف، بل لأنه صادق أكثر مما ينبغي. الصدق، حين يُعرّى من سياقه، يتحول إلى عبء ثقيل، لا لأن الآخرين يرفضونه بالضرورة، بل لأنهم لا يعرفون أين يضعونه. صارت تلاحظ كيف تتغيّر نبرة الأسئلة الموجّهة إليها، كيف يُعاد ترتيب الجلسات دون إعلان، وكيف تُترك فجوات صغيرة في الحديث، فجوات لا يمكن الاعتراض عليها لأنها غير مكتوبة، لكنها مع ذلك محسوسة بوضوح كافٍ لمن يعيش داخلها.

لم يكن أحد يواجهها مباشرة، ولم تكن هي تبحث عن مواجهة. كانت المواجهة، في هذه المرحلة، تبدو لها خيارًا فجًّا، غير منسجم مع ما تحاول بناءه في داخلها. ما كانت تواجهه فعليًا هو تلك الطبقة الرقيقة من البرود المهني، من الحذر الاجتماعي، من إعادة التموضع الصامت الذي يحدث حين يشعر النظام، أي نظام، أن أحد أجزائه لم يعد قابلًا للاحتواء الكامل. هذا النوع من الإقصاء لا يُعلن، لأنه لا يحتاج إلى إعلان، يكفي أن تشعر به كي يبدأ تأثيره.

في إحدى المرات، جلست في اجتماع طويل لم يُذكر اسمها فيه إلا عرضًا، رغم أن العمل الذي يُناقش كان امتدادًا مباشرًا لما قامت به سابقًا. لم يكن ذلك سهوًا، كانت تعرف، كما يعرف الجميع، أن السهو الحقيقي لا يتكرر بهذا الانتظام. شعرت حينها بشيء يشبه الانكماش الداخلي، ليس غضبًا، بل إدراكًا باردًا أن الوضوح لا يُكافأ دائمًا بالاعتراف، وأن الاعتراف ليس شرطًا لصحة الطريق، رغم كل ما تعلمناه عكس ذلك.

عادت إلى بيتها في ذلك اليوم متعبة على نحو مختلف، تعب لا يظهر في الجسد بل في طريقة الجلوس، في ثقل الصمت، في عدم الرغبة في الشرح حتى للنفس. جلست قرب النافذة، لا لتفكر، بل لتترك الأفكار تمرّ دون مقاومة. كانت المدينة في الخارج تمارس

إيقاعها المعتاد، سيارات تعبر، أضواء تُطفأ وتُشعل، وجوه تعود إلى بيوتها محمّلة بيوم آخر من التكيّف. شعرت فجأة أن ما تمرّ به ليس استثناءً، بل نسخة أكثر وضوحًا من حياة كثيرين، فرقها الوحيد أنها لم تعد قادرة على إقناع نفسها بأن التكيّف فضيلة مطلقة.

في اليوم التالي، وصلها ذلك الاقتراح المغلّف بلغة حيادية دقيقة، عرض لا يُسمّى عرضًا، لكنه يفتح بابًا جانبيًا للخروج من منطقة التوتر مقابل تعديل طفيف في الموقع، في النبرة، في مستوى الانخراط. لم يُطلب منها التراجع عمّا قالت، فقط ألا تذهب بعيدًا أكثر. قرأت الرسالة أكثر من مرة، لا لتفهم محتواها، بل لتفهم إحساسها الأولي تجاهها، ذلك الإحساس الذي جمع بين الارتياح والاشمئزاز في آن واحد، ارتياح لأن الباب موجود، واشمئزاز لأنها فهمت لماذا فُتح الآن.

جلست طويلًا مع هذا التناقض دون أن تحسمه بسرعة. لم تُشيطن العرض، ولم تُقدّسه. فكّرت في الإرهاق الذي تراكم فيها خلال الأشهر الأخيرة، في النوم المتقطع، في الحذر الدائم، في الثمن الصغير اليومي الذي يدفعه من يعيش في الضوء دون حماية كافية. فكّرت أن التنازل لا يأتي دائمًا من الجبن، بل أحيانًا من الرغبة في

البقاء قابلًا للحياة. هذا الفهم لم يُدنها، لكنه لم يمنحها الإذن الكامل بالقبول.

في تلك الليلة، عادت إلى دفترها، لا لتكتب موقفًا سياسيًا أو إعلانًا أخلاقيًا، بل لتفكك شعورها بدقة. كتبت عن الإرهاق بوصفه حالة معرفية، لا جسدية فقط، عن اللحظة التي يصبح فيها الصمت جذابًا لأنه يَعِد بالراحة، لا لأنه يَعِد بالسلام. كتبت عن أبي، لا كمثال يُحتذى، بل كمرآة بعيدة، رأت فيها إنسانًا اختار طريقًا لأنه كان مناسبًا لزمنه، لا لأنه كان الطريق الوحيد.

مع مرور الأيام، بدأت الخسارات الصغيرة تتكشّف ببطء، دعوات تقلّ، مكالمات لا تُعاد، فرص تُؤجل إلى أجل غير مسمّى. لم تكن هذه الخسارات درامية، لكنها كانت دقيقة بما يكفي لتعيد ترتيب علاقتها بذاتها. اكتشفت أن كثيرًا مما كانت تعتبره بديهيًا لم يكن كذلك، وأن بعض الأبواب كانت مفتوحة لأن وجودها لم يكن مُربكًا، لا لأنها كانت ضرورية.

ومع ذلك، لم تشعر بالندم الكامل. كان هناك حزن هادئ، نعم، لكنه حزن مصحوب بإحساس نادر بالتماسك. للمرة الأولى منذ زمن، لم تكن مضطرة إلى مراقبة لغتها الداخلية، لم تكن بحاجة إلى إقناع نفسها بأنها تفعل الصواب، لأنها ببساطة كانت تفعل ما

تستطيع تحمّله أخلاقيًا. هذا الإدراك لم يمنحها قوة خارقة، لكنه منحها أرضية ثابتة، أرضية يمكن الوقوف عليها دون تبرير مستمر.

بدأت تفهم أن الوضوح ليس نهاية المسار، بل بدايته الفعلية، وأن ثمنه لا يُدفع مرة واحدة، بل يُستقطع على أقساط طويلة الأمد، وأن السؤال الحقيقي ليس: هل أستطيع تحمّل هذا الثمن؟ بل: هل أستطيع العيش دون دفعه؟ هذا السؤال لم يحتج إلى إجابة مكتوبة، لأنه كان حاضرًا في طريقة تنفّسها، في نظرتها للأشياء، في قدرتها على النوم رغم كل شيء.

في نهاية هذا الفصل، لم تُغلق عفراء الباب، ولم تفتحه على مصراعيه، بل وقفت عند العتبة بوعي كامل. لم تعد تنتظر تصفيقًا، ولم تعد تخاف من الخسارة، كانت فقط تحاول أن تعيش في منطقة لا تخون فيها نفسها، حتى لو لم تفهمها المدينة بعد. وكانت تعرف، في مكان عميق منها، أن هذا النوع من الوضوح، رغم كلفته، هو الشيء الوحيد الذي سيحملها إلى الفصل التالي دون أن تنكسر.

الفصل الرابع عشر: ما لا يُقال علنًا

لم يحدث الأمر دفعة واحدة، ولم يكن هناك تصريح يمكن أن يُمسك به بوصفه بداية رسمية لما سيأتي، بل كان تراكمًا دقيقًا من الإشارات الصغيرة التي تتكامل ببطء حتى تصبح صورة كاملة لا يمكن تجاهلها. عفراء لم تستيقظ ذات صباح لتجد نفسها في مواجهة علنية مع أحد، لكنها استيقظت على إحساس ثابت بأن المساحة التي كانت تقف فيها لم تعد محايدة، وأن الصمت الذي يحيط بها لم يعد مجرد فراغ، بل ترتيب غير مكتوب للأدوار.

بدأت تلاحظ كيف يُدار الحديث حين تكون حاضرة، كيف تتغيّر زوايا الجلوس، كيف تُختصر بعض الجمل أو تُقال بعمومية مفرطة، كأن الدقة صارت فجأة مخاطرة لا داعي لها. لم يكن أحد يعاديها، ولم يكن أحد يدعمها، لكنها كانت تشعر بوضوح أنها خرجت من منطقة "غير المرئية"، تلك المنطقة التي تسمح للمرء أن يمرّ دون أن يُحسب. أن تُحسب، حتى دون إعلان، كان بحد ذاته تحوّلًا ثقيلاً.

في أحد اللقاءات، طُرح موضوع كانت تعرفه جيدًا، موضوع عملت عليه طويلًا، ولامس جوهر الأسئلة التي بدأت تشغلها منذ رحيل أبي. لم يُذكر اسمها، ولم يُطلب رأيها، لكن الجميع كانوا

ينظرون إليها بطريقة غير مباشرة، كأن وجودها نفسه صار تعليقًا صامتًا. في تلك اللحظة، فهمت أن ما لا يُقال علنًا يمكن أن يكون أثقل من أي خطاب، وأن السكوت الجماعي أحيانًا ليس حيادًا، بل شكلًا متقنًا من أشكال التنظيم.

عادت إلى بيتها وهي تشعر بأن التعب الذي رافقها سابقًا بدأ يتحوّل إلى شيء أكثر صلابة، أقل انكسارًا. لم تعد المسألة متعلقة بإثبات موقف، ولا بتجنّب خسارة، بل بقدرتها على قراءة المشهد دون أوهام. جلست طويلًا تفكّر في الفرق بين العزلة التي يفرضها الآخرون، والعزلة التي تختارها أنت لحماية وضوحك. أدركت أن ما تعيشه الآن هو المنطقة الفاصلة بين الاثنين، منطقة لا تمنحك راحة القرار ولا ألم الرفض الصريح.

في الأيام التالية، حدث ما يشبه الاصطفاف الصامت. بعض الوجوه صارت أكثر قربًا، لكن بحذر، وبعضها ابتعد دون تفسير. لم تأخذ الأمر على نحو شخصي، لأنها بدأت تفهم أن الخوف، حين ينتشر، يعيد ترتيب العلاقات دون حاجة إلى نوايا سيئة. الوطن، في هذه المرحلة، لم يكن سلطة واضحة ولا خصمًا محددًا، بل شبكة دقيقة من المصالح، من القلق، من الرغبة في البقاء آمنين داخل الممكن.

وجدت نفسها تفكّر كثيرًا في أبي، لا بوصفه غائبًا، بل بوصفه حاضرًا بطريقة مختلفة. فهمت الآن أن ما لم يقله لم يكن دائمًا عجزًا، بل قراءة دقيقة لموازين لا تُرى من الخارج. ومع ذلك، لم تشعر بأن هذا الفهم يلزمها بتكرار خياره. الزمن تغيّر، والموضع تغيّر، وما كان صمتًا وقائيًا في زمنه قد يتحوّل إلى صمت خانق في زمنها.

في إحدى الليالي، خرجت للمشي طويلًا دون وجهة محددة، كما كانت تفعل في بدايات التحوّل. الشوارع بدت مألوفة وغريبة في آن واحد، كأنها تعكس حالتها الداخلية بدقة غير مقصودة. شعرت بأن الوطن، حين يُفهم على هذا النحو، لا يكون مكانًا للانتماء السهل، بل ساحة اختبار مستمر للقدرة على التوازن بين ما نعرفه وما نستطيع قوله.

لم تتخذ قرارًا كبيرًا في هذا الفصل، لكنها اتخذت سلسلة من القرارات الصغيرة التي لا تقل أهمية؛ أن تقول جملة كاملة حين تتكلم، أن تصمت حين يكون الصمت اختيارًا لا خوفًا، أن تقبل سوء الفهم المؤقت بدل أن تعيش في راحة زائفة. هذه القرارات لم تغيّر المشهد الخارجي فورًا، لكنها أعادت ترتيب موقعها داخله.

في نهاية هذا الفصل، كانت عفراء تدرك أن القادم لن يكون صاخبًا بالضرورة، لكنه سيكون أوضح، وأن ما لا يُقال علنًا

سيظل حاضرًا في الخلفية، يضغط، يختبر، يطالب بثمن ما. كانت تعرف أن الطريق الذي اختارها السؤال إليه لا يعود إلى الوراء، وأن الفصول القادمة لن تمنحها ترف البراءة الأولى، لكنها قد تمنحها شيئًا أندر: القدرة على الوقوف في قلب التعقيد دون أن تفقد اسمها.

الفصل الخامس عشر: لحظة الانكشاف

لم تأتِ لحظة الانكشاف على هيئة حدث مفاجئ كما تُصوَّر عادة، لم يكن هناك مشهد درامي واحد يمكن الإشارة إليه والقول إن كل شيء تغيّر عنده، بل جاءت كحالة تراكمية بلغت حدّها الأقصى، حتى لم يعد ممكنًا تجاهلها أو تأجيلها أو التعامل معها بوصفها سوء فهم عابر. عفراء شعرت بها قبل أن تراها، في ذلك الثقل الذي صار يرافقها منذ استيقاظها، وفي الإحساس الغامض بأن اليوم، أي يوم، لم يعد صفحة جديدة، بل استمرارًا مكشوفًا لما سبق.

كانت تعرف، دون دليل ملموس، أن المساحة التي تقف فيها قد ضاقت إلى حدّ لم يعد يسمح بالحياد، وأن ما حاولت الحفاظ عليه طويلاً من توازن صار يُقرأ الآن بوصفه موقفًا بحد ذاته. هذا الإدراك لم يأتِ معها دفعة واحدة، بل تسلل ببطء، عبر تفاصيل صغيرة؛ نظرات أطول من اللازم، صمت يأتي في غير موضعه، أسئلة تُطرح بنبرة فضول لا تخلو من اختبار. لم يكن أحد يهاجمها، لكن الجميع، بطريقة ما، كانوا ينتظرون منها شيئًا.

في ذلك اليوم، دُعيت إلى اجتماع لم يكن مختلفًا في شكله عن الاجتماعات السابقة، لكنه كان مختلفًا في الهواء الذي يحيط به. الكلمات قيلت بعناية زائدة، والجمل صيغت بحيث تحتمل أكثر من معنى، لكن المعنى الحقيقي كان يسير تحت السطح بثبات. حين جاء دورها للكلام، لم تشعر بتسارع في قلبها، لم تشعر حتى بالخوف، بل بشيء أقرب إلى الوضوح الهادئ، ذلك النوع من الصفاء الذي يأتي حين تفهم أن أي خيار ستتخذه لن يعيدك إلى ما كنت عليه.

تكلّمت.

لم ترفع صوتها، ولم تُطلق عبارات قاطعة، لكنها قالت ما تعرفه كاملًا، دون التواء، ودون محاولة لتخفيف وقع المعنى. لم تُسمِّ الأمور بأسمائها الكبرى، لكنها لم تُخفِ جوهرها. الكلمات خرجت كما هي، غير مصقولة لتنال قبولًا، وغير حادّة لتصنع صدمة. كانت تعرف، وهي تتكلم، أن ما تقوله لن يغيّر القرار الجماعي بالضرورة، لكنه سيغيّر موقعها داخله، وهذا كان كافيًا.

سادت لحظة صمت قصيرة بعد انتهائها، صمت لا يحمل عداءً ولا ترحيبًا، بل يحمل ذلك النوع من الارتباك الذي يحدث حين يُقال ما كان الجميع يعرفه ضمنًا، لكنهم اتفقوا على ألا يُقال. لم تُقاطع، ولم تُشكر، فقط انتقل الحديث إلى نقطة أخرى، كأن ما حدث لم يكن حدثًا. هذا التجاهل المقصود كان بحد ذاته اعترافًا غير مباشر بأن شيئًا ما انكشف، وأن إعادته إلى الظل لم تعد سهلة.

خرجت من الاجتماع وهي تشعر بخفّة غير متوقعة، لا لأن النتيجة كانت إيجابية، بل لأن الغموض انتهى. الغموض هو أثقل ما يمكن أن يحمله الإنسان طويلًا، وحين يسقط، حتى لو سقط معه بعض الأمان، يترك مساحة للتنفس. كانت تعرف أن ما فعلته لن يمرّ بلا أثر، وأن الأيام القادمة ستكشف أثمانًا جديدة، لكنها لم تشعر بالندم، فقط بإرهاق صادق، إرهاق من قال ما يستطيع قوله وتوقّف.

في طريق عودتها، تذكّرت أبي فجأة، لا في صورته الصامتة التي ألفتها، بل في لحظة افتراضية تخيّلتها له، لحظة كان فيها قريبًا من قول شيء ثم تراجع. لم تحاكمه في خيالها، ولم ترفعه إلى مرتبة الحكمة المطلقة، فقط رأت إنسانًا عاش زمنه بأدواته، وها هي

تعيش زمنها بأدوات مختلفة، تدفع ثمنًا مختلفًا، وتكسب معنى مختلفًا.

في المساء، جلست وحدها، لم تفتح الدفتر فورًا، بل تركت الوقت يمرّ دون كتابة، كأنها تحتاج أن تستقر في جسدها قبل أن تستقر على الورق. حين كتبت، لم توثّق الحدث، بل وثّقت الإحساس الذي تلاه، ذلك الشعور الغريب بأنك لم تعد مخفيًا، ولا مميزًا، لكنك لم تعد منقسمًا على نفسك أيضًا. كتبت عن الانكشاف بوصفه حالة وجودية، لا لحظة سياسية فقط، عن الشعور بأنك مرئي بما يكفي لتُساء فهمك، لكن واضح بما يكفي لتفهم نفسك.

في نهاية هذا الفصل، لم تكن عفراء أقوى بالمعنى التقليدي، ولم تكن منتصرة، لكنها كانت متماسكة على نحو جديد. عرفت أن الانكشاف لا يعني النهاية، بل بداية مرحلة أخرى، مرحلة لا تعود فيها الأسئلة نظرية، ولا القرارات مؤجلة. كانت تعرف أن القادم سيحمل اختبارًا أعمق، وربما خسارات أوضح، لكنها كانت مستعدة أخيرًا لأن تمشي الطريق دون أن تُقنع نفسها بأن الظل أمان.

الفصل السادس عشر: حين تقترب الحقيقة من اسمها

لم يكن الصباح مختلفًا في شكله، لكنه كان مختلفًا في ثقله، كأن الهواء نفسه صار أبطأ، وكأن الضوء الذي دخل من النافذة لم يأتِ ليوقظ الأشياء بل ليكشفها، لتقف عفراء أمام المرآة لحظة أطول من المعتاد، لا لأنها تبحث عن ملامحها، بل لأنها تحاول أن تتذكّر متى بدأت هذه الملامح تشبه امرأة تعرف أكثر مما تقول، وتحمل في عينيها تاريخًا لم يُكتب بعد لكنه يُلحّ عليها كدينٍ مؤجَّل، كانت المدينة في الخارج تستعد ليومها كعادتها، ضجيج خافت، خطوات متعجلة، أصوات بعيدة لباعة وصافرات، لكن داخلها كان الصمت أكثر صخبًا، صمتٌ يتراكم منذ ليالٍ، منذ تلك اللحظة التي شعرت فيها أن الخيط الذي كانت تمسكه بين الماضي والحاضر بدأ ينفلت، لا ينقطع، بل يتمدّد حتى صار مؤلمًا.

جلست على حافة السرير، وراحت تستعيد تفاصيل الأمس كما لو كانت تحاول إعادة ترتيب غرفة فوضوية في ذاكرتها، الكلمات التي قيلت، النظرات التي لم تُفهم، ذلك الإحساس الغريب بأن شيئًا ما يُدار خلف ظهرها، ليس خيانة بالمعنى المباشر، بل معرفة مؤجلة، حقيقة مؤجلة، وكل ما هو مؤجل عند عفراء كان يتحول

مع الوقت إلى ثقلٍ على الصدر، فهي لم تكن تخاف الحقيقة بقدر ما تخاف طريقة وصولها، التوقيت الذي تختاره، الثمن الذي تطلبه.

حين خرجت إلى الشارع، شعرت بأن الأرصفة تعرفها أكثر مما تعرف نفسها، كل زاوية مرّت بها حملت ذكرى، وكل نافذة مفتوحة كانت تشبه عينًا تراقب دون حكم، المدينة لم تكن قاسية، لكنها كانت صادقة، والصّدق حين يأتي دفعة واحدة قد يكون جارحًا، لذلك مشت ببطء، كأنها تؤجّل الوصول، تؤجّل اللحظة التي ستُقال فيها الجملة التي تغيّر كل شيء، الجملة التي لا يمكن بعدها العودة إلى النسخة القديمة من الذات.

في المقهى الصغير عند الزاوية، جلست في المكان نفسه الذي اعتادت الجلوس فيه، لم يكن اختيارها له صدفة، فالأماكن، مثل البشر، تحمل ذاكرة، وهذا المكان شهد صمتها أكثر مما شهد كلامها، طلبت قهوتها دون تفكير، كانت تعرف الطعم قبل أن يصل، مرارته التي تشبهها حين تحاول أن تبدو متماسكة، وحين جاءها الفنجان، لم تشرب فورًا، تركته يبرد قليلًا، كأنها تمنح نفسها مهلة أخيرة قبل المواجهة.

وصلت الرسالة وهي تنظر إلى انعكاس وجهها على سطح القهوة، رسالة قصيرة، بلا مقدمات، لكنها محمّلة بما يكفي من القلق، قرأتها

مرة، ثم مرة ثانية، وفي كل مرة كانت الكلمات نفسها لكن الإحساس يختلف، لم يعد هناك مجال للتأجيل، الموعد صار محددًا، والمكان صار معروفًا، والحديث الذي كانت تهرب منه صار ينتظرها بوضوحٍ لا يترك مساحة للشك.

نهضت، دفعت الحساب، وخرجت، الخطوات هذه المرة كانت أسرع، ليس لأنها متحمسة، بل لأنها قررت أخيرًا أن تواجه، أن لا تترك للغموض سلطة أطول، أن تعرف حتى لو كان الثمن انكسار صورة، أو سقوط فكرة كانت تتكئ عليها منذ زمن، كانت تعرف في أعماقها أن بعض الحقائق لا تُدمّرنا، لكنها تُجبرنا على إعادة بناء أنفسنا من الصفر، وهذا ما كانت تخشاه وتحتاجه في آنٍ واحد.

عند المكان المتفق عليه، توقفت قليلًا قبل الدخول، أخذت نفسًا عميقًا، شعرت بثقل السنوات كلّها في هذه اللحظة، لكنها شعرت أيضًا بقوة غريبة، قوة من يعرف أن الهروب لم يعد خيارًا، وأن المواجهة، مهما كانت قاسية، هي الطريق الوحيد للنجاة من التآكل الداخلي، دفعت الباب، ودخلت، ومع دخولها، بدأت مرحلة جديدة، ليس فقط في الحكاية، بل في علاقتها بنفسها، وفي الطريقة التي ستنظر بها إلى كل ما مضى وكل ما سيأتي.

الفصل السابع عشر: ما لا يُقال حين يُقال كل شيء

لم يكن اللقاء كما تخيّلته عفراء في كل المرات التي مرّ فيها في رأسها، لم يكن مشحونًا بالصوت ولا بالانفعال، بل كان هادئًا على نحوٍ أربكها، هدوءٌ يشبه ما يسبق العاصفة لا ما يليها، جلست قبالته، وبينهما طاولة صغيرة بدت فجأة أوسع من المسافة التي تفصل شخصين يعرفان بعضهما منذ زمن، لكنها شعرت أن الطاولة ليست إلا رمزًا لكل ما تراكم بينهما من أسئلة لم تُطرح، ومن إجابات أُجّلت عمدًا، ومن خوفٍ مشترك من لحظة الحقيقة.

كان ينظر إليها كما لو كان يبحث عن الكلمات في ملامحها قبل أن ينطق بها، وعفراء، التي اعتادت أن تقرأ الصمت، شعرت أن هذا الصمت تحديدًا ليس فارغًا، بل مثقل، يحمل أكثر مما يحتمل، حاولت أن تبدأ الحديث، أن تفتح الباب الذي جاؤوا لأجله، لكن الكلمات خانتها للحظة، لا لأنها لا تعرف ما تريد قوله، بل لأنها أدركت فجأة أن ما سيُقال لن يبقى في هذا المكان، بل سيمتدّ إلى كل شيء بعدها، إلى نظرتها لنفسها، وإلى الطريقة التي ستتذكّر بها الماضي.

حين تكلّم أخيرًا، لم يبدأ بما توقّعته، لم يقدّم اعترافًا مباشرًا، ولم يلقِ بالحقيقة دفعة واحدة، بل راح يلتفّ حولها، كمن يحاول حماية

شيء هشّ، لكن الالتفاف لم يخفّف من حدّة ما قاله، بل جعله أكثر إيلامًا، لأن عفراء كانت تفهم ما بين السطور، وتعرف أن الحقيقة حين تُقال بنصفها، تُوجِع أكثر من الحقيقة الكاملة.

شعرت بشيء ينكسر ببطء داخلها، ليس انهيارًا صاخبًا، بل تشقّقًا صامتًا، ذلك النوع من الانكسار الذي لا يراه أحد، لكنه يغيّر شكل الداخل إلى الأبد، أرادت أن تسأله، أن تواجهه بتفاصيل، بتواريخ، بأسماء، لكنها تراجعت، لا بدافع الضعف، بل لأنها شعرت أن السؤال في هذه اللحظة ليس عمّا حدث، بل عمّا سيحدث بعدها، عمّا إذا كانت قادرة على الاستمرار وهي تحمل هذه المعرفة الجديدة، أو إن كانت ستختار طريقًا آخر، أقل راحة، لكنه أكثر صدقًا مع نفسها.

قالت أخيرًا ما كانت تؤجّله منذ زمن، قالت إنها تعبت من الغموض، من أن تكون دائمًا في منطقة رمادية، لا تعرف إن كانت تمسك الحقيقة أم مجرد ظلّ لها، صوتها كان ثابتًا على غير عادتها، وكأن الكلمات حين خرجت منها اكتسبت قوة لم تكن تتوقعها، هو صمت، ولم يكن صمته هذه المرة مراوغًا، بل اعترافًا غير منطوق بالعجز عن التبرير.

في تلك اللحظة، أدركت عفراء أن بعض العلاقات لا تنتهي بخطأ واحد، بل بسلسلة من التأجيلات الصغيرة، من السكوت المتكرر، من التنازلات التي نظنّها بسيطة لكنها تتراكم حتى تصنع هوّة، وأن ما كانت تعيشه لم يكن خداعًا بقدر ما كان اتفاقًا غير معلن على عدم المواجهة، وهي الآن وحدها من قررت كسر هذا الاتفاق.

حين نهضت من مكانها، لم تشعر بالانتصار ولا بالهزيمة، شعرت فقط بخفّة غريبة، كأن شيئًا ثقيلاً أزيح عن صدرها، حتى لو ترك مكانه فراغًا مؤلمًا، الفراغ على الأقل صادق، يمكن التعامل معه، يمكن ملؤه أو التعايش معه، أما الثقل المجهول فكان يستهلكها ببطء دون أن تشعر.

خرجت إلى الشارع، والهواء هذه المرة بدا أوضح، أبرد قليلًا، لكنه حقيقي، مشت دون هدف محدد، تركت قدميها تقودانها، كانت تعرف أن ما حدث اليوم ليس نهاية الحكاية، بل بدايتها الفعلية، وأن الطريق الذي اختارته الآن سيقودها إلى أسئلة أكبر، وربما إلى خسارات أكثر، لكنه سيقودها أيضًا إلى نسخة من نفسها لم تجرؤ سابقًا على أن تكونها.

رفعت رأسها، نظرت إلى السماء، شعرت للمرة الأولى منذ زمن أن الغد، رغم غموضه، لا يخيفها كما كان يفعل، لأنها لم تعد تهرب، ولم تعد تنتظر أن يقول الآخرون الحقيقة نيابة عنها، لقد بدأت تقولها بنفسها، ولو كان الثمن أن تسير وحدها لبعض الوقت.

الفصل الثامن عشر: حين يصبح الصمت فعلًا

لم يكن الصباح الذي تلا ذلك اللقاء مختلفًا في شكله عن غيره من الصباحات، الضوء ذاته يتسلّل من النافذة، الأصوات المعتادة في الشارع، حركة البيت البطيئة التي تعرفها عفراء عن ظهر قلب، لكن الاختلاف كان في الداخل، في الطريقة التي استيقظت بها، كأن شيئًا ما قد تغيّر في موضعه داخلها، لا يمكن تحديده بدقة، لكنه حاضر في كل حركة، في كل نفس تأخذه دون تردّد. لم تعد تستيقظ وهي تفكّر بما يجب أن تخفيه، بل بما يجب أن تحافظ عليه من نفسها.

جلست طويلًا على حافة السرير، لم تندفع إلى يومها، ولم تبحث عن تشتيت، كانت تحتاج إلى هذا التباطؤ، إلى أن تسمح للفكرة بأن تستقرّ دون مقاومة، أن تعترف بأن ما جرى لم يكن مجرد مواجهة شخصية، بل تمرينًا أوليًا على موقف أكبر، على القدرة على أن تقول لا، لا بوصفها رفضًا للآخر فقط، بل قبولًا لحدودها هي. أدركت أن الصمت الذي اختارته بعد اللقاء لم يكن هروبًا، بل فعلًا واعيًا، نوعًا من الوقوف في المكان دون تبرير، دون محاولة لإصلاح ما لا يمكن إصلاحه.

خرجت من البيت لاحقًا، ومشت في الشوارع التي تعرفها، لكنها شعرت كأنها تراها للمرة الأولى، كأن المدينة، التي لطالما بدت لها مألوفة حدّ التلاشي، استعادت ملامحها، وجوه الناس، واجهات المحال، حتى الأرصفة المتشققة بدت لها شاهدة على حياة كاملة تجري دون أن تطلب الإذن من أحد. فكّرت في الوطن، لا بوصفه فكرة كبيرة، بل بوصفه هذه التفاصيل اليومية، هذه القدرة على الاستمرار رغم كل شيء، ورغم الخيبات الصغيرة التي لا تُكتب في العناوين.

في منتصف النهار، وصلتها رسالة قصيرة، بلا مقدّمات، بلا شرح، كلمات قليلة تحمل ثقلًا غير متناسب مع حجمها. قرأتها أكثر من مرة، لا لأنها لم تفهم معناها، بل لأنها كانت تحاول أن تحدّد شعورها الحقيقي تجاهها. لم تشعر بالارتباك كما توقّعت، ولم تشعر بالغضب، بل بشيء أقرب إلى الوضوح، كأن الرسالة جاءت متأخرة، بعد أن حُسم الأمر داخليًا، فلم تعد تملك القدرة على زعزعتها. تركت الهاتف جانبًا، وقرّرت ألا ترد، ليس بدافع القسوة، بل لأن بعض الردود تعيد فتح أبواب أُغلقت عن حق.

جلست في مقهى صغير، اعتادت الجلوس فيه أيام الكتابة الأولى، طلبت قهوتها كما تفعل دائمًا، وفتحت الدفتر، لكن

الصفحة بقيت بيضاء لوقت أطول من المعتاد. لم تكن الكلمات غائبة، بل كانت تتكدّس خلف بعضها، تنتظر ترتيبًا جديدًا، لغة مختلفة، لا تعتمد على الشكوى ولا على التبرير، بل على الملاحظة الصافية. بدأت تكتب أخيرًا، لا عن اللقاء، بل عن الإحساس الذي تلاه، عن الفراغ الذي لا يطالب بأن يُملأ فورًا، بل بأن يُحترم.

كتبت عن النساء اللواتي تعلّمن الصمت طويلًا حتى صار جزءًا من هويتهن، وعن اللحظة التي يكتشفن فيها أن الصمت نفسه يمكن أن يكون اختيارًا لا قيدًا، وأن الفرق بين الاثنين دقيق، لكنه حاسم. شعرت وهي تكتب أن صوتها لم يعد مهتزًا، وأن اللغة لم تعد محاولة للإقناع، بل أداة للفهم، وهذا التحوّل، البسيط في شكله، كان عميقًا في أثره.

مع حلول المساء، عادت إلى البيت، لم تحمل معها ثقل اليوم، بل حملت نوعًا من الطمأنينة الحذرة، الطمأنينة التي لا تعد بشيء، لكنها لا تخدع. جلست قرب النافذة، راقبت تغيّر الضوء، وفكّرت في الخطوة التالية، لا بوصفها تحديًا، بل بوصفها استمرارًا، لأن الحياة، كما بدأت تفهمها الآن، لا تُحسم بلحظة

واحدة، بل بسلسلة من القرارات الصغيرة التي نلتزم بها حتى حين لا يرانا أحد.

قبل أن تنام، أعادت قراءة ما كتبته، لم تعدّل كثيرًا، لم تحاول تنعيم الجمل، تركتها كما خرجت، ممتلئة، صادقة، غير خائفة من أن تبدو قاسية. أغلقت الدفتر، وأطفأت الضوء، وهي تعرف أن الأيام القادمة لن تكون أسهل، لكنها ستكون أوضح، وأن هذا الوضوح، مهما كان مؤلمًا أحيانًا، هو الطريق الوحيد الذي لم تعد مستعدة للتخلي عنه.

الفصل التاسع عشر: حين يقترب الخارج

لم يعد بالإمكان الادّعاء أن ما يحدث يقتصر على الداخل فقط، لم تعد التحوّلات محصورة في اللغة التي تكتب بها عفراء أو في الطريقة التي تصمت فيها، بل بدأت تظهر على السطح، في الاحتكاكات الصغيرة، في النظرات التي تطول أكثر من اللازم، في الأسئلة التي تُطرح وكأنها عابرة لكنها تحمل نبرة فحص غير بريئة. كان الخارج، بكل ثقله، يقترب ببطء، لا كعاصفة مفاجئة، بل كضغط مستمر، كيد توضع على الكتف وتبقى هناك، تذكّر صاحبها بأنها موجودة.

في العمل، تغيّرت النبرة العامة من دون إعلان، صارت الاجتماعات أكثر تحفظًا، والكلمات تُختار بعناية زائدة، كأن الجميع بات يعرف أن شيئًا ما خرج عن المسار المعتاد، دون أن يملك أحد الجرأة على تسميته. عفراء لاحظت ذلك، لا بقلق، بل بوعي حاد، كانت تراقب كيف يُعاد ترتيب المسافات بينها وبين الآخرين، كيف تُستبدل العفوية بحذر مصقول، وكيف تتحوّل المجاملات إلى اختبار مبطّن للولاء.

لم تكن تشعر بالخوف، لكنها كانت تشعر بثقل المسؤولية، مسؤولية أن تبقى على ما هي عليه دون تصعيد، ودون تراجع في الوقت نفسه. فهمت أن المرحلة القادمة لن تكون عن الكلام، بل عن الاتساق، عن أن تتطابق التفاصيل الصغيرة مع القرار الكبير الذي اتخذته دون ضجيج. الوطن، في هذه اللحظة، لم يكن خصمًا ولا حليفًا، بل مساحة مراقبة، كل حركة فيها تُقرأ، وكل صمت يُفسَّر.

في أحد الأيام، استدعاها شخص لم تتوقّع أن يكون جزءًا من هذا المشهد، شخص عرفته سابقًا بوصفه حياديًا، بعيدًا عن الاصطفافات الواضحة. جلست أمامه بهدوء، استمعت أكثر مما تكلّمت، وخرجت من اللقاء بشعور غريب؛ لم يُطلب منها شيء مباشر، لم تُهدَّد، لم تُغوَ، لكن الرسالة كانت واضحة بما يكفي: الطريق الذي تسلكه لم يعد غير مرئي، وأن الاستمرار فيه سيجعلها، عاجلًا أم آجلًا، موضع مساءلة.

عادت إلى البيت ذلك المساء مثقلة، لا بالتعب، بل بالإدراك. أدركت أن الحياد الذي اعتقدت أنه متاح للجميع ليس خيارًا مفتوحًا إلى الأبد، وأن الصمت، حين يصبح موقفًا، يُقرأ بوضوح أكبر من الكلام. جلست طويلًا تفكّر في أبي، في سنواته الطويلة

من الموازنة الدقيقة، في ممارته في البقاء داخل الخط دون أن يختفي تمامًا، وتساءلت إن كانت تملك القدرة نفسها، أو إن الزمن تغيّر إلى درجة لم تعد تسمح بتلك المنطقة الرمادية الواسعة.

فتحت الدفتر، لا لتكتب هذه المرة، بل لتعيد قراءة ما سبق، ولاحظت أن لغتها تغيّرت دون أن تنتبه، صارت أقل استعارة، أكثر مباشرة، كأن الكلمات نفسها بدأت تشعر بثقل اللحظة. لم تشعر بالحنين إلى الأسلوب القديم، بل بالامتنان له، لأنه قادها إلى هنا، ثم تنحّى بهدوء.

في الأيام التالية، بدأت الدائرة تضيق قليلًا، ليس بطريقة صريحة، بل عبر الإقصاء الناعم، عبر عدم الدعوة، عبر تغييب اسمها من بعض القوائم، وعفراء، بدل أن تقاوم هذا الإقصاء أو تحاول فضحه، قررت أن تراه كما هو: إشارة. إشارة إلى أن ما تفعله، حتى دون إعلان، يُحدث أثرًا. هذا الإدراك لم يمنحها نشوة، بل ثباتًا، ذلك النوع من الثبات الذي يأتي حين تتوقّف عن السؤال: هل يستحق الأمر؟ لأنك صرت تعرف أن السؤال نفسه صار متأخرًا.

في إحدى الليالي، خرجت تمشي طويلًا، بلا وجهة، تركت المدينة تأخذها كما هي، فكّرت في المستقبل لا بوصفه وعدًا، بل احتمالًا

مفتوحًا، في الخسارات التي قد تأتي، وفي المكاسب التي لن تكون مرئية فورًا. شعرت للمرة الأولى بأن وحدتها لم تعد نقصًا، بل مساحة، مساحة تسمح لها بأن ترى، وأن تختار، وأن تتحمّل نتائج الاختيار دون أن تبحث عن شهود يصفّقون.

حين عادت، كانت تعرف أن الفصل القادم لن يكون عن الاقتراب فقط، بل عن الاصطدام، وأن ما بنته داخلها خلال كل هذه الفصول لم يكن ترفًا فكريًا، بل استعدادًا بطيئًا لمواجهة لم تعد مؤجلة. أغلقت الضوء، وفي ذهنها فكرة واحدة واضحة، هادئة، لا تحمل بطولة ولا ادّعاء: لن تعود إلى الخلف، حتى لو لم تعرف بعد إلى أين سيقودها هذا الطريق.

الفصل العشرون: حين يُطلَب الاسم كاملًا*

لم يأتِ الطلب في صيغة إنذار، ولا في شكل مواجهة صريحة، جاء بسيطًا إلى حدّ الخداع، جملة عادية قيلت بنبرة إدارية محايدة، لكنها حملت في داخلها ثقل ما لا يُقال. طُلب منها أن تحضر، أن تجلس، أن توضّح، أن تضع اسمها كاملًا على الطاولة، لا بوصفه توقيعًا، بل بوصفه موقفًا. في تلك اللحظة بالذات، أدركت عفراء أن كل ما سبق، من يقظة وأسئلة ودفاتر وذاكرة، لم يكن سوى تمهيد طويل لهذه النقطة الدقيقة، حيث لا يكفي أن تعرف، ولا يكفي أن تفهم، بل يُطلب منك أن تكون.

دخلت المكان بهدوء متعمّد، لا لتخفي ارتباكها، بل لأنها لم تعد ترى فائدة من إظهار ما يجري داخلها. كانت قد تعلّمت، عبر السنوات الأخيرة، أن الداخل حين يصبح واضحًا جدًا، يتحوّل إلى نقطة ضعف، لا إلى مصدر قوة. جلست، وضعت حقيبتها إلى جانبها، ورفعت رأسها ببطء، كأنها تمنح اللحظة وزنها الحقيقي. الوجوه أمامها لم تكن غريبة، لكنها لم تعد مألوفة أيضًا، كأن الزمن أعاد ترتيبها في سياق جديد، أكثر صرامة، أقل تساهلًا.

بدأ الحديث عن أمور عامة، عن سياقات، عن التزامات، عن ضرورة الوضوح في مرحلة حسّاسة. عفراء استمعت، لم تقاطع،

ولم تسرح، كانت حاضرة بكامل وعيها، تشعر بكل كلمة كأنها تُختبر بها شخصيًا، حتى حين لا يُذكر اسمها. وحين وصل الدور إليها، لم يُطلب منها دفاع ولا تبرير، بل طُلب منها أن تقول أين تقف، لا سياسيًا، ولا أيديولوجيًا، بل أخلاقيًا، وهذا ما جعل السؤال أثقل بكثير مما توقعت.

في تلك الثواني القليلة التي سبقت ردّها، مرّ شريط طويل داخلها، ليس على شكل ذكريات متتابعة، بل كإحساس كثيف، صورة الوطن كما عرفته، كما عاشت فيه، كما صمتت عنه طويلًا، صورة الأب، لا كظلّ أو كرمز، بل كإنسان اختار طريقًا معيّنًا ودفع ثمنه بطريقة صامتة، وصورة نفسها، وهي تحاول طوال الفصول السابقة أن تجد صيغة تسمح لها بالبقاء دون أن تنكسر، وبالكلام دون أن تُستهلَك.

لم تتكلم كثيرًا، لكنها تكلمت بوضوح، لم ترفع صوتها، ولم تستخدم لغة حادّة، قالت فقط ما تستطيع الدفاع عنه إن طُلب منها ذلك مرة أخرى، قالت إنها لا تستطيع أن تكون جزءًا من صمت يُدار كسياسة، ولا من خطاب يُستخدم كغطاء، قالت إنها تؤمن بأن الوطن لا يُحمى بإلغاء الأسئلة، بل بتحمّلها، وأنها لا تبحث عن صدام، لكنها لم تعد قادرة على الانحناء كما في السابق.

ساد الصمت بعد كلماتها، صمت لم يكن عقابيًا ولا متعاطفًا، بل صمت قياس، كأن ما قيل وُضع على ميزان غير مرئي، تُفحَص كلفته، وتُقاس نتائجه المحتملة. شعرت عفراء بثقل هذا الصمت أكثر مما شعرت بثقل الكلام، لأنها كانت تعرف أن ما سيأتي لاحقًا لن يكون نتيجة الجملة نفسها، بل نتيجة قرارها أن تقولها أصلًا.

خرجت من المكان بعد وقت لم تنتبه لطوله، مشَت في الشارع ببطء، لم تشعر بالنصر، ولا بالهزيمة، بل بشيء أقرب إلى الاستقرار الحزين، ذلك النوع من الاستقرار الذي يأتي حين تتوقف عن المساومة الداخلية. كانت تعرف أن الأيام المقبلة لن تكون سهلة، أن بعض الأبواب ستُغلَق، وأن بعض العلاقات ستتغيّر، وربما تُمحى، لكنها كانت تعرف أيضًا، للمرة الأولى، أنها لن تضطر إلى إعادة شرح نفسها كل مساء.

في الليل، جلست وحدها، لم تفتح الدفتر مباشرة، بقيت تنظر إلى الصفحة البيضاء طويلًا، كأنها ترى فيها وجهًا جديدًا لها، وجهًا لم يُصقَل بعد، لكنه حقيقي. حين كتبت، لم تكتب عن الاجتماع، ولا عن الكلمات، بل كتبت عن الشعور الذي تلا ذلك، عن الخفّة الغريبة التي تلي القرار الصعب، عن الألم الذي لا يطلب

شفقة، وعن الوطن الذي، حين يضعك في زاوية، يكشف لك حجمك الحقيقي.

نامت متأخرة، لكن نومها كان أعمق من ليالٍ كثيرة سبقت، لأنها، رغم كل شيء، لم تعد معلّقة بين خيارين. كانت تعرف أن الفصل التالي لن يكون أخطر بالضرورة، لكنه سيكون أوضح، وأن الوضوح، في هذا البلد، لا يحمي، لكنه يمنحك على الأقل شرف الوقوف في مكانك دون أن تتهرّب من ظلك.

الفصل الحادي والعشرون: ما لا يُقال بعد الموقف*

لم تظهر النتائج فورًا، لم يرنّ الهاتف محمّلًا بالتهديد، ولم يصلها قرار مكتوب يحمل ختمًا رسميًا يعلن الإقصاء، بل جاء كل شيء على هيئة فراغات صغيرة بدأت تتسع بهدوء، كأن الواقع نفسه يعيد ترتيب مساحته حولها دون أن يلفت الانتباه. في الأيام الأولى، ظنّت أن الأمر مجرد توهّم، أن الحساسية التي تلت الموقف جعلتها تفسّر التفاصيل بعين متوترة، لكنها سرعان ما أدركت أن ما يحدث حقيقي، وأنه أكثر قسوة لأنه لا يملك شكلًا يمكن مواجهته مباشرة.

في العمل، تغيّر الإيقاع دون إعلان، الاجتماعات التي كانت تُدعى إليها صارت تُعقد قبل حضورها أو بعد مغادرتها، الملفات التي كانت تمرّ بين يديها أُعيد توجيهها بصيغة إدارية باردة، والوجوه التي اعتادت تبادل التحية معها صارت أكثر حذرًا، أقل عفوية، كأن قربها بات يُحسب ضمن المخاطر غير المكتوبة. لم يواجهها أحد، ولم يوبّخها أحد، لكنها شعرت، للمرة الأولى، أنها مرئية أكثر مما يجب، ومهمَلة في الوقت ذاته.

كانت تعرف هذا النوع من العقاب، لم يكن جديدًا عليها نظريًا، لكنها لم تختبره يومًا بهذه الحميمية. الإقصاء الصامت لا يمنحك فرصة

الدفاع عن نفسك، ولا يمنحك شرف المواجهة، يتركك معلّقة في منطقة رمادية، حيث لا تستطيع أن تشتكي، ولا أن تتراجع، لأن كل شيء يبدو طبيعيًا على السطح. الوطن، حين يقرّر أن يبتعد عنك، يفعل ذلك بابتسامة رسمية.

في البيت، بدأت تلاحظ أثر ذلك على جسدها قبل أفكارها. التعب لم يعد مرتبطًا بالجهد، بل بالانتباه المستمر، ذلك الانتباه الذي يرافقك حين تعرف أن كل حركة، كل كلمة، كل صمت، قد يُقرأ أكثر مما يحتمل. كانت تنام أقل، ليس بسبب القلق المباشر، بل بسبب حالة ترقّب غامضة، كأن شيئًا ما على وشك الحدوث، لكنه يصرّ على التأجيل.

عادت إلى دفاتر أبي، لا لتبحث عن نصيحة، بل لتقارن. قرأت بين السطور ما لم تكن تراه سابقًا، فهمت الآن لماذا كان يختار العزلة في بعض المراحل، ولماذا كان يضيّق دائرته الاجتماعية كلما اتسعت دائرة معرفته. لم يكن ذلك زهدًا في الناس، بل حماية دقيقة للنفس من التآكل البطيء. شعرت بقربه أكثر من أي وقت مضى، لا كأب، بل كإنسان مرّ بالطريق ذاته وخرج منه بصمته الخاص.

بدأت بعض العلاقات تتراجع تلقائيًا، أصدقاء قدامى صاروا أكثر انشغالًا، مكالمات لم تُعاد، دعوات لم تصل، ولم تلُم أحدًا على ذلك. كانت تفهم أن الخوف لا يحتاج إلى تبرير

وأن كثيرين يفضّلون السلامة الصامتة على الصداقة المعرّضة للتأويل. لم تشعر بالمرارة بقدر ما شعرت بالوضوح، الوضوح الذي يأتي متأخرًا لكنه حاسم.

وفي المقابل، ظهرت أصوات قليلة لم تتوقعها، رسائل قصيرة، لقاءات عابرة، جمل مقتضبة تحمل دعمًا غير معلن. لم تكن تلك الأصوات كافية لتشكيل شبكة أمان، لكنها كانت كافية لتذكيرها بأنها ليست وحدها تمامًا، وأن ما فعلته لم يكن نشازًا مطلقًا كما حاول الصمت أن يوحي. تعلّمت في تلك المرحلة أن التضامن الحقيقي نادر، لكنه ثمين لأنه لا يطلب ضجيجًا.

في إحدى الأمسيات، خرجت تمشي دون هدف، المدينة بدت كما هي، لكنها شعرت أنها تراها من مسافة جديدة، لم تعد تطلب منها الانتماء الكامل، ولا تعاديها، كانت فقط تراقبها كما يراقب المرء كائنًا يعرف أنه لن يتغير لأجله. الوطن، في هذا الفصل، لم يكن فكرة كبرى، بل سلسلة اختبارات صغيرة، وكل اختبار كان يسألها السؤال ذاته بصيغة مختلفة: هل تندمين؟

لم تجد في داخلها ندمًا صريحًا، وجدت حزنًا، نعم، وجدت تعبًا، وخسارات واضحة، لكنها لم تجد الرغبة في التراجع. أدركت أن القرار، حين يُتخذ بصدق، لا يختفي أثره حتى لو كلفك الكثير، وأن التراجع بعد المعرفة أشد قسوة من الصمت قبلها.

في تلك الليلة، كتبت في دفترها جملة واحدة، طويلة، ممتدة، بلا فواصل تقريبًا، كتبت عن المسافة التي تنشأ بينك وبين العالم حين تختار أن ترى بوضوح، وعن الوحدة التي لا تكون عزلة، بل نتيجة طبيعية لعدم المشاركة في الكذب اليومي. أغلقت الدفتر وهي تعرف أن الفصل التالي لن يكون عن النتائج فقط، بل عن إعادة بناء الذات داخل هذا الواقع الجديد.

كانت قد دخلت مرحلة لا عودة فيها، مرحلة لا تُقاس بما تخسره، بل بما لم تعد قادرة على التخلي عنه: نفسها كما صارت.

الفصل الثاني والعشرون: إعادة ترتيب الذات

لم يكن ما حدث نهاية، رغم أنه حمل في داخله إحساس الخسارة المكتملة، ولم يكن بداية واضحة أيضًا، بل منطقة انتقالية لا تُعرَّف بسهولة، منطقة تعيش فيها الأشياء بلا أسماء دقيقة، وتُختبر فيها الذات دون مرآة. كانت عفراء تعرف أنها خرجت من مرحلة، لكنها لم تكن متأكدة بعد إلى أين وصلت، فقط كانت متأكدة أنها لم تعد في المكان القديم، وأن العودة لم تعد خيارًا نفسيًا حتى لو بدت ممكنة عمليًا.

بدأت إعادة الترتيب من التفاصيل الصغيرة، من الصباحات التي لم تعد تُشبه ما قبلها، من طريقة شرب القهوة، من الصمت الذي صار أقل توترًا وأكثر قبولًا. لم تعد تستيقظ وهي تتهيأ للمواجهة، ولا تنام وهي تنتظر حدثًا مباغتًا، كأن الجسد نفسه بدأ يفهم أن الخطر لم يعد فوريًا، وأن عليه أن يجد إيقاعًا جديدًا للحياة، إيقاعًا لا يقوم على الدفاع المستمر، بل على الحذر الهادئ.

في العمل، لم تستعد موقعها السابق، ولم تحاول ذلك أصلًا. أدركت أن بعض المواقع لا تُستعاد دون أن تدفع ثمنًا داخليًا لا ترغب في دفعه، وأن التقدم ليس دائمًا صعودًا، بل أحيانًا انسحاب محسوب يحفظ ما تبقى من الاتزان. صارت أكثر انتقائية

في كلامها، لا خوفًا، بل وعيًا بأن الكلمة، حين تُقال بعد التجربة، تحمل وزنًا مضاعفًا، وأن الصمت هذه المرة ليس وراثة، بل اختيار مؤقت يخدم البقاء لا الإنكار.

علاقتها بالناس تغيّرت بعمق، لا على السطح. لم تعد تبحث عن القبول السريع، ولا عن الطمأنة المستمرة. صارت تترك المسافات تنشأ دون قلق، وتسمح لبعض العلاقات أن تخفت دون أن تفسّر ذلك كفشل شخصي. تعلّمت أن بعض الروابط كانت قائمة على النسخة القديمة منها، وأن النسخة الجديدة لا يمكنها أن تطلب منهم ما لم يعد في قدرتهم منحه، ولا أن تعود هي إلى ما لم تعد تصدّقه.

عادت إلى دفاترها الخاصة، لا دفاتر أبي، وبدأت تكتب بطريقة مختلفة، أقل تفسيرًا، أكثر تسجيلًا. لم تعد تحاول فهم كل شيء، بل صارت تكتفي بوضعه في مكانه المناسب داخل الذاكرة. فهمت أن الفهم المفرط قد يتحول إلى عبء، وأن بعض الأسئلة لا تحتاج إلى إجابات نهائية كي تهدأ، بل إلى اعتراف بوجودها فقط.

في إحدى الليالي، تذكرت عبارة كتبها أبي ولم تفهمها سابقًا:

"ليس المهم أن تنجو، المهم أن تعرف لماذا نجوت".

حينها فقط أدركت معناها. النجاة التي بلا وعي تُعيدك إلى النقطة ذاتها، أما النجاة المصحوبة بالمعرفة فتغيّرك إلى الأبد، حتى لو أبقتك في المكان نفسه ظاهريًا. شعرت أن ما مرّت به لم يكن عبثيًا، ولا مجرد خسارة، بل مرحلة ضرورية كي تعيد تعريف نفسها بعيدًا عن الأدوار المفروضة.

بدأت ترى الوطن من زاوية أقل انفعالًا وأكثر عمقًا. لم تعد تنتظر منه اعترافًا، ولا عدلًا مكتملًا، ولا مساحة آمنة دائمة. صارت تراه كمساحة اختبار مستمرة، قاسية أحيانًا، لكنها حقيقية. الوطن، في هذه المرحلة، لم يكن خصمًا ولا حبيبًا، بل واقعًا لا بد من التعايش معه دون أوهام كبيرة، ودون خيانة صامتة للنفس.

في هذا الفصل من حياتها، لم تعد عفراء تسأل: ماذا لو؟

بل صارت تسأل: كيف الآن؟

كيف أعيش بما أعرف دون أن أنهار؟

كيف أحافظ على وضوحي دون أن أتحول إلى كائن معزول؟

كيف أكون ابنة هذا المكان دون أن أكرر الصمت ذاته؟

لم تجد أجوبة مكتملة، لكنها وجدت اتجاهًا، والاتجاه، في هذه المرحلة، كان كافيًا. شعرت أن ذاتها بدأت تستقر في هيئة جديدة، أقل حدّة، أقل اندفاعًا، لكنها أكثر صدقًا. لم تعد تشبه من كانت، لكنها لم تفقدها أيضًا، كأن النسخة القديمة انسحبت بهدوء لتفسح المجال لامرأة تعرف ثمن رؤيتها، وتقبل بدفعه دون ادّعاء بطولة.

أغلقت دفترها في تلك الليلة وهي تشعر، للمرة الأولى منذ زمن طويل، بأن الطريق لم يعد يطالبها بإثبات دائم، بل يمنحها مساحة لتكون، فقط لتكون، وهذا بحد ذاته كان انتصارًا صغيرًا لا يحتاج إلى شهود.

الفصل الثالث والعشرون: الاسم الذي اخترته

لم يكن الاسم مسألة لفظية كما ظنّت طويلًا، لم يكن مجرد ترتيب حروف يُطلق على الجسد لتمييزه عن غيره، بل كان اختصارًا غير مرئي لمسار كامل من التوقعات، والافتراضات، والواجبات المؤجلة. عفراء، الاسم الذي ورثته، لم يكن عبئًا في حد ذاته، لكنه كان محمّلًا بما لم يُقال، بما أُريد له أن يكون نقيًا وصامتًا وقابلًا للتأويل، كأن النقاء شرط غير مكتوب للاستمرار، وكأن الصمت فضيلة لا تُناقش.

بعد كل ما مرّت به، بدأت تفهم أن الاسم ليس ما يُنادى به الإنسان، بل ما يُستدعى به داخليًا حين يكون وحده، حين لا جمهور ولا امتحان، حين لا حاجة للتبرير. كانت تنادي نفسها في لحظات التعب بأسماء كثيرة دون أن تنتبه، أسماء مؤقتة، مرتبكة، بلا وضوح، إلى أن انتبهت فجأة إلى أن الارتباك نفسه كان علامة على تحوّل لم يكتمل بعد.

في الأيام التي تلت إعادة ترتيب ذاتها، لم تعد تحاول أن تشرح نفسها لأحد، ولا أن تصحح الصور الملتبسة عنها. تركت الانطباعات تأخذ مسارها الطبيعي، كما تركت الأحكام تمرّ دون مقاومة. أدركت أن بعض الناس يحتاجون إلى تصنيف الآخرين

كي يشعروا بالأمان، وأن مقاومتك لهذا التصنيف لا تغيّرهم بقدر ما تستنزفك. الاسم الذي اختارته لنفسها في هذه المرحلة لم يكن علنيًا، لم يكن يُكتب في الأوراق الرسمية، بل كان يُمارَس.

مارست الاسم الجديد في طريقة مشيها، في نبرتها حين تقول "لا" دون تبرير طويل، وفي صمتها حين لا يكون للكلام معنى. لم تعد تشعر بالحاجة إلى أن تكون واضحة دائمًا، لأن الوضوح المستمر يتحول إلى عبء، وإلى انكشاف غير عادل في بيئات لا تكافئ الصدق. تعلمت أن الانتقاء ليس خيانة، بل حكمة مكتسبة.

عادت بذاكرتها إلى طفولتها، إلى اللحظة الأولى التي فهمت فيها أن اسمها مختلف، أن له وقعًا خاصًا، وأنه كان يثير أسئلة لم تكن تفهمها آنذاك. تذكّرت كيف كانت تشرح اسمها للآخرين، وكيف كانت تشعر بشيء من الفخر وشيء من الغربة في آن واحد. الآن فقط فهمت أن الغربة لم تكن في الاسم، بل في محاولتها الدائمة لتناسبه، لتكون "كما ينبغي" لا كما تشعر.

في تلك المرحلة، بدأت علاقتها بجسدها تتغيّر أيضًا، لم يعد مجرد حامل للأفكار والقلق، بل صار مساحة اختبار صادق. تعلّمت أن تصغي للتعب قبل أن يتحول إلى إنذار، وأن تتوقف دون

شعور بالذنب. كانت هذه التفاصيل الصغيرة جزءًا من الاسم الجديد الذي اختارته، اسم لا يُقال، لكنه يُعاش.

في إحدى الليالي، جلست وحدها وكتبت صفحة كاملة، لم تكن اعترافًا ولا رسالة، بل محاولة لتسمية ما أصبحت عليه دون استعارة لغوية كبيرة. كتبت عن المرأة التي لم تعد تبحث عن النجاة السريعة، ولا عن البطولة المؤقتة، بل عن الاستمرارية النظيفة، عن العيش دون انقسام داخلي، عن القدرة على النظر في المرآة دون الحاجة إلى تبرير الخيارات. حين انتهت، لم تشعر بالاكتمال، لكنها شعرت بالانتماء إلى نفسها، وهذا كان كافيًا.

تذكّرت أبي مرة أخرى، لكن الذكرى هذه المرة لم تكن موجعة. رأت مساره بوضوح أكبر، فهمت أن بعض الآباء يورّثون أبناءهم الصمت لأنهم لم يعرفوا لغة أخرى تحميهم، وأن تجاوز هذا الإرث لا يعني إنكاره، بل تطويره. شعرت بشيء من الامتنان الهادئ، لا لأن ما حدث كان عادلًا، بل لأنه شكّلها على نحو لم تكن لتختاره، لكنه صار جزءًا منها الآن.

الاسم الذي اختارته لم يكن ضد الوطن، ولم يكن ذوبانًا فيه. كان اسمًا يقف في المنتصف، يعرف حدوده، ويعرف كلفته، ويقبلها دون ادّعاء نقاء مطلق. لم تعد ترى الانتماء كعلاقة عاطفية خالصة،

بل كمسؤولية نقدية، كحضور واعٍ لا يطلب التصفيق ولا يخشى العزلة.

مع مرور الوقت، بدأت تشعر أن حياتها تستعيد إيقاعًا أقل توترًا، لا لأن الظروف تغيّرت جذريًا، بل لأنها لم تعد تخوض كل شيء بنفس العصبية القديمة. تعلمت أن تختار معاركها، وأن تترك بعضها يمرّ دون تدخل، ليس خوفًا، بل حفاظًا على ما هو أعمق. الاسم الجديد لم يكن انسحابًا، بل إعادة تموضع.

في لحظة صفاء نادرة، أدركت أن السؤال الذي بدأ الرحلة لم يعد يطالبها بإجابة، بل صار جزءًا من بنيتها الداخلية، وأن الطريق، الذي بدا طويلًا وملتبسًا، صار أوضح لأنه لم يعد يَعِدها بشيء سوى الصدق مع الذات. شعرت أن الفصل الحقيقي الذي تعيشه الآن لا يحتاج إلى عنوان كبير، ولا إلى إعلان، لأنه مكتوب في التفاصيل اليومية، في الخيارات الصغيرة التي لا يراها أحد.

عندما أغلقت الدفتر تلك الليلة، لم تشعر بالخوف من الفصل الأخير، لم تعد الخاتمة تعني لها نهاية، بل لحظة تثبيت، لحظة اعتراف بأن الرحلة لا تُختصر، وأن بعض التحولات لا تُعلن، بل تُعاش بهدوء. الاسم الذي اختارته لم يكن قطيعة مع الماضي، ولا

تمردًا عليه، بل مصالحة واعية مع ما صارته، ومع ما لن تعود إليه أبدًا.

الفصل الرابع والعشرون: حين لا يعود الصمت خيارًا

لم يحدث الأمر فجأة، ولم يتخذ شكل لحظة درامية فاصلة كما تحب الروايات السريعة أن تفعل، لم يكن هناك صباح مختلف ولا مساء يحمل علامة حاسمة، بل جاء التغيير زاحفًا، متدرّجًا، كتحوّل الضوء حين يطول النهار دون أن ننتبه إلى اللحظة التي غادر فيها الليل تمامًا. الصمت، الذي كان في حياة عفراء مساحة آمنة في البداية، ثم صار مع الوقت ضرورة، ثم تحوّل لاحقًا إلى عبء ثقيل، وصل أخيرًا إلى نقطة لم يعد فيها قادرًا على أداء أي وظيفة مفهومة. لم ينكسر، لم ينهَر، لكنه فرغ من معناه، وكأن الكلمات التي لم تُقل عبر السنوات استهلكت طاقته حتى آخرها.

كانت قد عاشت طويلًا وهي تعتقد أن الصمت شكل من أشكال الحكمة، وأن التراجع خطوة ذكية في عالم لا يرحم الوضوح، وأن الاختباء المؤقت قد يكون استراتيجية بقاء. لكنها اكتشفت، متأخرة قليلًا وربما في الوقت المناسب تمامًا، أن الصمت الذي يُطلب منك باستمرار لا يكون حيادًا أبدًا، بل يكون تموضعًا قسريًا، موقعًا يُدفع إليه الإنسان دون أن يختاره حقًا. وأن البقاء في هذا الموقع بعد أن تتضح الرؤية لا يُعد فضيلة، بل تنازلًا متواصلًا، صغيرًا لكنه متراكم، عن شيء جوهري في الداخل.

لم تستيقظ عفراء يومًا لتعلن موقفًا، ولم تشعر بحاجة إلى مواجهة علنية أو كلمات كبيرة تُقال دفعة واحدة. لم تكتب بيانًا، ولم تُحمّل نفسها دور البطولة، ولم تُرِد أن تتحول إلى رمز لأي شيء. ما حدث كان أدق وأعمق: تغيّر في طريقة وجودها داخل العالم. تغيّر في علاقتها بذاتها أولًا، ثم بما يحيط بها. لم تعد تُقلّل من أفكارها كي تمرّ، ولم تعد تُجزّئ جُملها خوفًا من سوء الفهم، ولم تعد تُهذّب قناعاتها إلى حدّ يفقدها معناها الأصلي.

صارت تقول ما تقصده، لا أكثر ولا أقل. صارت تعرف متى تصمت، ولماذا، وبأي ثمن. وهذا الفرق وحده كان كافيًا ليقلب ميزان حياتها الداخلية، حتى لو لم يلحظه أحد من الخارج.

في الأيام التالية، لم تتغير المدينة. بقيت الشوارع على حالها، والمقاهي في أماكنها، والوجوه المألوفة تكرّر تعابيرها نفسها. لم تختفِ الشبكات غير المرئية التي تُدير الكثير من التفاصيل الصغيرة والكبيرة، ولم يحدث زلزال يُعيد ترتيب الواقع. كل شيء بدا كما هو، لكن علاقتها به لم تعد كما كانت. لم تعد تنتظر إشارة أمان كي تتصرّف، ولم تعد تُقنع نفسها بأن الوقت غير مناسب. فهمت أخيرًا أن الوقت لا يصبح مناسبًا أبدًا، وأن الانتظار الطويل لا يحمي أحدًا، بل يدرّب الإنسان ببطء على التعايش مع ما يؤذيه.

كانت تمشي في الشوارع نفسها التي حفظت تضاريسها عن ظهر قلب، لكنها لم تعد تُصغّر خطواتها، ولم تعد تراقب نبرة صوتها كما لو كانت تمشي فوق أرض هشّة. لم تعد تبحث عن تأكيد خارجي يطمئنها بأنها على حق، ولا عن موافقة صامتة تبرّر ما تفعل. تعلّمت أن سوء الفهم ليس كارثة، بل ثمنًا طبيعيًا للوضوح، وأن القبول العام غالبًا لا يكون مقياسًا للحقيقة، بل مقياسًا لمدى انسجامك مع راحة الآخرين.

في العمل، لم تُفتح لها الأبواب فجأة، ولم تُمنح امتيازات إضافية، ولم تتحول إلى نموذج يُحتذى. لكن شيئًا آخر حدث، أقل وضوحًا وأكثر رسوخًا: لم تعد منقسمة على نفسها. لم تعد تقول شيئًا وتفكر في نقيضه، ولم تعد تصمت في مواضع يكون الصمت فيها تزويرًا ناعمًا للواقع. لم تكن صاخبة، ولم تتخذ دور المعارضة الدائمة، لكنها كانت واضحة في حدودها، دقيقة في لغتها، ثابتة في اختياراتها، وهذا وحده كان كافيًا ليغيّر طبيعة وجودها، حتى وإن لم يغيّر النظام الذي تعمل داخله.

ذات مساء، عادت إلى البيت وجلست في المكان نفسه الذي فتحت فيه صندوق أبيها للمرة الأولى. لم تُخرج الصندوق، لم تعد بحاجة إلى فتحه أو إعادة قراءة محتوياته. أدركت أن ما كان فيه لم

يعد وثيقة أو دليلًا، بل صار جزءًا من نسيجها الداخلي، من طريقة فهمها للعالم ولذاتها. شعرت بشيء يشبه السلام، لكنه لم يكن سلام المصالحة الكاملة، بل سلام القبول. القبول بأن بعض الأسئلة ستبقى معلّقة، وأن بعض التفاصيل لن تُفكّك أبدًا، وأن هذا النقص في الإجابات لا يُنقص من قيمة الطريق، بل يمنحه صدقه.

فكّرت في أبي طويلًا، لا بحزن ثقيل ولا بعتب متأخر، بل بنظرة هادئة، متصالحة. فهمت أنه لم يكن صامتًا لأنه لا يرى، بل لأنه رأى أكثر مما يسمح به الواقع، واختار أن ينجو بطريقته الخاصة. لم تعد ترى نفسها نقيضًا له، بل امتدادًا مختلفًا. امتدادًا لم يلغِ خياره، لكنه لم يكرّره. أدركت أن الإرث لا يُعاد إنتاجه كما هو، بل يُعاد تشكيله وفق شروط الزمن، وأن ما كان شجاعة في زمن قد يكون هروبًا في زمن آخر، والعكس صحيح.

في تلك الليلة، كتبت آخر صفحة في دفترها. لم تكن خلاصة نهائية، ولم تكن وعدًا للمستقبل، بل تسجيلًا هادئًا للحظة إدراك ناضجة. كتبت عن امرأة تعلّمت أن تعيش دون أن تختبئ، دون أن تصرخ، دون أن تُساوم على وعيها كي تنتمي. كتبت عن وطن لا يمنح أبناءه الطمأنينة بسهولة، لكنه يختبر صدقهم باستمرار،

ويضعهم أمام خيارات رمادية لا بطولات فيها ولا براءات كاملة. كتبت عن الصمت، لا بوصفه عدوًا، بل بوصفه مرحلة انتهت صلاحيتها.

لم تشعر بالانتصار، لأن الانتصار يفترض معركة واضحة وحدودًا صلبة بين طرفين، وهذا لم يكن ما عاشته. شعرت فقط بأنها لم تعد مضطرة إلى الانقسام الداخلي، ولم تعد مضطرة لأن تكون شخصين في جسد واحد: واحد يرى كل شيء بوضوح، وآخر يتظاهر بالعمى كي يستمر. هذا التوحّد الداخلي، البسيط والعميق في آن، كان أثمن ما خرجت به من الرحلة كلّها.

في الصباح التالي، خرجت إلى يوم عادي تمامًا. لا أحداث استثنائية، لا إشارات كبرى، لا تغييرات مرئية. لكن شيئًا فيها كان قد استقر أخيرًا. لم تعد تسأل نفسها: هل كان يستحق؟

لأن السؤال نفسه فقد ضرورته.

الطريق لم يعد يطلب منها تفسيرًا، ولا تبريرًا، ولا إثباتًا إضافيًا. كانت تعرف الآن أن بعض الخيارات لا تُقاس بنتائجها المباشرة، بل بما تتركه في الداخل: اتساقًا أو شرخًا، سلامًا أو استنزافًا بطيئًا.

وحين فكّرت في المستقبل، لم تره واضحًا، لكنها لم تشعر بالخوف. عرفت أنها ستخطئ، وستتراجع أحيانًا، وستصمت حين يكون الصمت حكمة لا هروبًا، لكنها عرفت أيضًا أن هناك نقطة واحدة لن تعود إليها أبدًا: تلك اللحظة التي كانت تتنازل فيها عن نفسها كي تمرّ بسلام زائف.

الصمت، في حياتها الآن، لم يعد خيارًا افتراضيًا يُفرض عليها، بل قرارًا واعيًا يُتخذ حين يخدم المعنى، لا حين يلغيه. وفي هذا الفرق الدقيق، استقرت حياتها أخيرًا في شكل يمكن العيش داخله دون خيانة للنفس.

هكذا انتهت الحكاية، لا بإغلاق الباب، بل بتركه مواربًا، لأن بعض الطرق لا تُغلق، بل تتحول إلى طريقة وجود. وبعض الأسئلة لا تُجاب أبدًا، بل تصبح جزءًا من صوتك الداخلي، يرافقك بهدوء، ويذكّرك، كلما احتجت، بأنك اخترت، مرة واحدة على الأقل، ألا تصمت حين لم يعد الصمت ممكنًا.